ğ ŀʒᴅ ǪǾǪ ƽ .Y
ƐǪ̊ Yʞdžƒ
ŋəʞÆRǩŀƿ ƐĞÄǩŀ ÁƏ ΘŀƐǒᴅ
Æ ƽ ʞØ ƽ ǩŀ ŬʞƷ◌̧Σ âŀƿ

حصاد مُر

نظرات في الفكر والثقافة والإجتماع السياسي

د. سليم نزال

إصدارات إي – كتب
لندن، 2015

Bitter Harvest
By: **Dr. Salim Nazzal**
Copyright: The Author
Published by E- Kutub.com & Google Books
ISBN: **9781780581455**

* * * * *

الطبعة الأولى، لندن- نيسان 2015
المؤلف: **د. سليم نزال**
الناشر: E-kutub Ltd، شركة بريطانية مسجلة في انجلترا برقم: 7513024
جميع الحقوق محفوظة للمؤلف.
لا تجوز إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب ألكترونيا أو على ورق. كما لا يجوز الاقتباس من دون الإشارة الى المصدر.
أي محاولة للنسخ أو إعادة النشر تعرض صاحبها الى المسؤولية القانونية.
إذا عثرت على نسخة عبر أي وسيلة اخرى غير موقع الناشر (إي- كتب) أو غوغل بوكس، نرجو اشعارنا بوجود نسخة غير مشروعة بالكتابة الينا:
ekutub.info@gmail.com
يمكنك الكتابة الى المؤلف على العنوان التالي:
salim_nazzal@yahoo.com

إهداء:

الى أبي وأمي. حضوركما في الروح يمنحني الأمل ما حييت.

الواقع بين نهاية عالم قديم وولادة عالم جديد

تقديم بقلم الاستاذ عصام مخول*

في "حصاد مر، نظرات في الفكر والثقافة والإجتماع السياسي"، يقتحم د. سليم نزال التاريخ في مرحلة مفصلية من مجرى تشكله، ويخوض غماره وسط تبلور تحولات تاريخية كبرى، تضع مجتمعاتنا العربية أمام منعطف فكري وسياسي وإجتماعي خطير، معتبرا أن مرحلة هامة من مراحل التاريخ قد بدأت في المنطقة العربية.

فالعالم القديم قد انتهى بكل ما كان يحمله من رؤى وافكار وتعريفات واولويات. وأصبح واضحا ان ما حصل ويحصل هو اكبر بكثير من تغيير حكام فاشلين وفاسدين ويتجاوز ذلك الى تحولات كبرى تطال المجتمع وثقافته بأسرها.

ويشير نزال الى أن تداعيات الإنفجار الحاصل في دول المشرق العربي منذ الثورة الشعبية في تونس ومصر واسقاط أنظمة التبعية والاستبداد فيها، وحتى العدوان الإرهابي التفكيكي المعولم على سوريا، يضع المنطقة أمام فيضان جارف نابع عن انهيار "سد مأرب سياسي" جديد يأخذ في طريقه كل شيء. وأننا

في هذه المرحلة إزاء انفجار شامل لكل الألغام والدمامل الإجتماعية والتاريخية والثقافية. الأمر الذي يحتاج الى زمن طويل لأجل ضبطه في منظومة سياسية جديدة ونظام سياسي جامع وفق ما تنتجه هذه الثورات والإنفجارات.

ولا يربط نزال تلقائيا بين نهاية العالم القديم وولادة عالم جديد، الا بمدى قدرة قوى التغيير الديموقراطية والتقدمية الحقيقية في المنطقة العربية، على خلق فرصة لاحداث نقلة في الثقافة الشعبية المتداولة وثقافة النظم السياسية. فالبديل عنده، لا يأتي من عملية الإطاحة بالقديم فقط بل باستكماله بمشروع حضاري بديل، وهو أمر ما زال غامضا لم تتضح معالمه حتى الآن.

إن محاولة اقتراح مقومات تقدمية متنورة للمشروع الحضاري البديل، والمساهمة في تحديد ملامح المنظومة السياسية الجديدة الضابطة، وطبيعتها الثقافية التعددية المنفتحة والمتسامحة مع الآخر، ومشروعها الفكري التنويري، والتأسيس لعقد إجتماعي يقدم بديلا عن مجتمعات التخلف والعنف والتبعية والاستبداد، هي التي تشكل هاجس الكاتب القلق، وجديد الكتاب، وأمل شعوب المنطقة العربية حتى لا تذهب تضحياتها الباهظة هدرا.

وبجرأة المفكر والمؤرخ، وفضول الباحث الإجتماعي، والمثقف الثوري الملتزم، يختار نزال السباحة في مياه العمليات التاريخية العميقة.

وهو إذ يتابع الزلازل السياسية والإجتماعية المتسارعة التي تهز المجتمعات العربية في المنطقة من الاعماق، فإنه لا يراها

بمعزل عن ارتباطها بأصولها الفكرية والثقافية والحضارية حيث تشكل هذه الزلازل الارتدادية جزءا من عملية تاريخية يصطدم في إطارها طموح الشعوب العربية لإنجاز التغيير الحقيقي في أوضاعها، وتصطدم تطلعاتها الى التحرر وإسقاط الإستبداد السياسي، واستعادة كرامتها الإنسانية والوطنية من جهة، بقوى الثورة المضادة والردة الإجتماعية، التي تسيطر على مفاصل المجتمع وعلى مؤسسات إعادة إنتاج الثقافة والفكر السائد، وتحتكر آليات صياغة الوعي الزائف وإعادة إنتاج التخلف والتعصب والتكفير والاقصاء. وفي طليعة هذه القوى التي تقود الثورة المضادة، تقف المؤسسات الدينية، وحركات الإسلام السياسي الطائفي حتى في ظل الدولة الوطنية العلمانية.

ويصبح تخليص الدين من براثن من يريد تسييسه لجعله أيديولوجيا سياسية هدفها السيطرة والتحكم بمجتمعاتنا وبلادنا، وفقا لسليم نزال، مطلبا ملحا لدى أولئك الذين يريدون للإسلام أن يعود الى وضعه الطبيعي، كدين تعايش مع مختلف الملل والنحل على مر التاريخ.

إن إعادة الإسلام الى وضعه الطبيعي كدين يحض على العدل والتسامح واحترام الإنسان هو المطلوب الآن بعد كل التشوهات التي حصلت، وردا قاطعا على الإسلاموفوبيا التي تستند الى وعي زائف مستشرق مقيت.

وفي إطار هذه القراءة التي يطرحها نزال للتحولات التاريخية الخطيرة، تطغى على المنطقة "عمليات إنحباس وإنحطاط حضاري"، يغلب عليها شبح التفريغ والإقصاء لمجموعات حضارية من صلب مكونات المشرق العربي

تتعرض في هذه الأيام الى عمليات تهجير وتطهير إثني واضطهاد و"تجريف حضاري"، لا يمكن مقارنته إلا بما جرى في القرن الثالث عشر عندما انهارت تماما الدولة العباسية المفككة، واجتاح المغول البلاد في أحدى أهم عمليات التدمير الحضاري عبر التاريخ".

بهذا المفهوم، لم يكن ظهور داعش، وحشد قوى الإرهاب العالمي وتصديرها الى سوريا لتفكيكها وإسقاطها، السبب في حالة الإنحطاط والتفكك التي تعيشها المنطقة، بل إن داعش وأخواتها هي نتيجة فاضحة لمشاريع التفكيك المبيتة للمنطقة وما يرافقها من انهيار عام في منظومة القيم المتعارف عليها وتكالب قوى الثورة المضادة المحلية والعالمية لسد الطريق أمام التحول التحرري المتنور المناهض للرجعية ومشاريع الهيمنة الإمبريالية والصهيونية في المنطقة.

وبينما يرفض سليم نزال القبول بـ"نظرية المؤامرة" في قراءة ما يجري في المشرق العربي، فإنه يرفض التغاضي عن المؤامرة الحقيقية الجارية على أرض الواقع في إطار مشروع الهيمنة الأمريكية في المنطقة، والمتمركزة في العدوان على سوريا بفعل موقعها وتاريخها وتركيبتها وتحالفاتها.

وفي الوقت الذي يرفض فيه نظرية المؤامرة، فإنه يرفض عقلية المؤامرة القائمة على بناء الأحلاف العدوانية على أساس تحشيد "محور سني" في مواجهة "هلال شيعي"، من مدرسة وزيرة الخارجية الأمريكية السابقة كونداليسا رايس. والترويج للخطاب المذهبي والتناقض الاثني والطائفي والدفع نحو تفكيك

الاوطان وتفتيت الشعوب الذي يشكل الحلم الرطب للمؤسسة الصهيونية الحاكمة في اسرائيل.

ويبقى السؤال القابل للتفكيك والاجتهاد: هل التناقضات الثقافية واالتخلف والفكر الاقصائي هي التي خلقت ثغرات استغلتها الولايات المتحدة لتعمق تدخلها وتحسن مواقعها الاستراتيجية في المنطقة، أم أن مشروع الهيمنة الأمريكية في المنطقة هو الذي شكل فرصة مبيتة وواعية لتقدم القوى الرجعية الى المنصة الأمامية في مجتمعاتها، ورواج فكر التخلف والإنحطاط لتؤدي دورها في مشروع "الفوضى الخلاقة" الذي أسست له كونداليسا رايس ثانية وارتبط بسياستها الفاعلة في المنطقة؟! وفي حين يرفض الكاتب وبحق، أن تتحول مواجهة المشاريع الإمبريالية العدوانية على المنطقة إلى شماعة يجري تعليق الإنحطاط الثقافي والعقلية الظلامية الاقصائية عليها لتبريرها، فإنه يرفض بحق أن تتحول المواجهة العادلة مع العقلية الظلامية المتخلفة والإنحطاط الثقافي إلى شماعة تعلق الإمبريالية وعملاؤها مؤامراتها عليها وتبريرها بها.

ومن موقع المثقف الثوري، لا يكتب سليم نزال من أجل التذمر وتوصيف الواقع وتفريغ الغضب، وإنما للمواجهة مع هذا الواقع والمساهمة في فهمه من أجل تغييره، فإنه يلجأ الى أدواته الفكرية والمهنية الغنية والمتنوعة، والى "صندوق عدته" التحليلية الثقافية والحضارية، من مدرسة النسبية الثقافية، الى التفكير النقدي، الى إيمانه القوي بثقافة التنوير كحركة دائمة للفكر وطرح الاسئلة والكشف المعرفي والعقل المنفتح على التعلم وآليات النقد، الى "سوسيولوجيا الامل"، ونقد الفكر الديني

ليتناول هذا الإنحطاط الإرهابي لا بظاهره وإنعكاسه السياسي فقط، بل في امتداده في صميم الثقافة السائدة وعمق التراكم الحضاري.

ومن هنا، فإن التصدي لفكر داعش واخواتها لا يمكن أن يتم الا من قبل قوى تمثل نقيضا لهذا الفكر، وليس من قبل القوى التي رعت داعش وجبهة النصرة وحملة الإرهاب المعولم على سوريا والمنطقة بعد أن دمرت العراق، ثم أقامت الأحلاف العسكرية المشبوهة لشن "حرب" مزيفة على الإرهاب.

ويمسك سليم نزال الثور من قرنيه حين يقرر أن الطائفية كثقافة وفكر هي صناعة سياسية، ولذلك فإنها يمكن أن تختفي أيضا بصناعة سياسية مضادة.

واستمرارا لفكر المفكر الكبير محمد اركون يطرح نزال استراتيجية "سوسيولوجيا الأمل" التي يعتبرها البديل الاستراتيجي الوحيد لثقافة العنف السائد في إقليمنا. وفي صلبها ضرب الجذور الفكرية المنتجة للتخلف، والتي من دونها لما ازدهرت ثقافة التطرف والإلغاء والإقصاء. وهي تشكل مشروعا لمحو الامية بكل أنواعها بما في ذلك الامية المعرفية والجمالية والثقافية. وهي تتعدى المفهوم التقليدي لتأخذ معنى ضرب معيقات التقدم، وتغيير الذهنية المنتجة للتخلف، واستبدال العقلية الجاهزة لاستقبال فكر التخلف. فالمطلوب تحقيق قطيعة معرفية مع فكر التخلف الذي يتكيف مع القيم الإجتماعية والدينية المتخلفة، والذي يضع بلادنا في حلقة مفرغة طوال الوقت. فالتغييرات لن تعطي نتائجها إن لم يتم ضرب مصدر الوعي الزائف.

لقد شرفني صديقي العزيز د. سليم نزال، المؤرخ الفلسطيني الذي تمتد جذوره الى قرية لوبية الجليلية المهجرة، المقيم في النرويج والباحث الإجتماعي والشاعر والكاتب المسرحي والمثقف الثوري، بالتقديم لكتابه القيم الذي يعالج أكثر العمليات التاريخية إلحاحا وإثارة في هذه المرحلة من التطورات الكبيرة الجارية في منطقتنا وربما في العالم اليوم. وأنا واثق أن هذا الكتاب يوفر للقارئ الكثير من أدوات التحليل، ويفتح المزيد من الاسئلة ويستثير المزيد من النقاش ويفتح الشهية على مزيد من الابداع والتحليل.

عصام مخول

رئيس معهد إميل توما للدراسات الفلسطينية والاسرائيلية – حيفا،
عضو الكنيست السابق، الامين العام السابق للحزب الشيوعي الاسرائيلي،
عضو المكتب السياسي ورئيس الدائرة الفكرية في الحزب.
حيفا فى 21 شباط 2015

مقدمة

أنتمي الى جيل كانت أبحاثه الجامعية تعود الى زمن ما قبل الإنترنت. أي في الزمن الذي كنا ننتقل من مكتبة الى مكتبه للحصول على الصحف والمجلات لأجل إيجاد مصادر المعرفة. ولقد زال هذا النقص الآن، ولكن أكبر خطر ظل يتعرض له الباحث، من وجهة نظري، هو خطأ الوقوع تحت تاثير الأيديولوجيا. وهذا ما درجت على كتابته وقوله لطلابي.

لأنه في هذه الحالة لن يكون بوسع الباحث الحصول على فهم أشمل للإشكاليات المطروحة خاصة في الصراعات السياسية، لان كل طرف يستخدم الأيديولوجيا لاجل التبشير بفكرته.

وفي ظل الإنفجار المعرفي الآن، فمن المؤكد ان الزمن الذي كان يدّعي فيه الكاتب أنه يعرف **"أسرار الالهة!"** قد انتهى. لان المعرفة صارت عمومية الأمر الذي سيقوي حس النقد والمراجعة والدقة والمشاركة والوعي. وسيكون لهذا في المستقبل تأثيرات حاسمة على الفكر والسياسة والعلاقات الدولية والإجتماعية،.. الخ.

وكما انتهت ديكتاتورية المعرفة، أعتقد أنه في غضون جيل واحد ستنهي كل انواع الديكتاتوريات الاخرى**!**

أود أن أقول بعض الكلمات حول مسألة الموضوعية التي لها حضور ضعيف في الثقافة العربية حسب اعتقادي.

الموضوعية هي نقيض الأيديولوجيا الى حد كبير. وبالموضوعية، أعنى الموضوعية النسبية، كما شرحها المؤرخ الإنكليزي إدوارد كار في أكثر من كتاب. لانه لا يمكن للمرء أن يكون موضوعيا تماما، وهذا الأمر له علاقة بالطبيعة البشرية. فالإنسان حتى حين يتفرج على فيلم سينمائي وهو تمثيل، يجد نفسه يتعاطف مع ابطال معينين، وغالبا المظلومين منهم. والموضوعية والنزاهة هما توامأن لا ينفصلان حسب رأيي. ومتى صار المثقف بوقا لسلطة فقد انتهت سلطته الاخلاقية.

ما أسعى اليه هو فهم الحقائق بأعلى نسبة ممكنة من بين أكوام الأيديولوجيا الكثيفة خاصة في الصراعات الحالية. ولذا لا بد من استخدام آليات معينة تحقق الحد المعقول من الهدف، وأهم آلية في رأيي هي آلية النقد وطرح الاسئلة.

دعني أعطي هذا المثال. لو افترضنا أنه حصلت حرب عالمية مدمرة، ووجد الباحثون من اجيال لاحقة وثائق من مصادر اسرائيليه فقط عن حرب 1967. وهي وثائق تقول فيها اسرائيل إن العرب بدأوا في الهجوم عليها. لن استغرب أن يتبنى المؤرخون هذه الاطروحة بسبب غياب مخطوطات من الطرف الاخر. اضرب هذا المثال لكي اؤكد على أهمية الاسئلة والعمل الفكري النقدي، والغوص بعمق في كل الروايات لكي نصل الى اقرب شيء للحقيقة. ولذا أعتقد أن المرء لا يمكنه معرفة الحقيقة كلها من وسائل الإعلام لأنها في اغلبها مؤدلجة بنسب مختلفة (مع استثناءات قليلة جدا). طبعا هناك درجات في الأدلجة، والفارق الوحيد ربما هو في سماكة القشرة الأيديولوجية.

والإنسان لديه ميل طبيعي أن يقرأ أو يسمع وسائل الإعلام التي تتفق مع افكاره، وهو أمر أتفهم دوافعه وحاجته على المستوى السايكولوجي خاصة لدى الافراد العاديين، لكني أعتقد انه غير صحي عموما، ومن المهم للباحث الذي تهمه قيم البحث الموضوعي والنزاهة والمصداقيه أن يقرأ ويطلع على مصادر لا تتفق مع قناعته الشخصية.

لكن عليّ أن اوضح أني لست معاديا للايديولوجيا بالمطلق، لكني استخدم آلية الشك حين يكون الخبرمن مصادر أيديولوجية. كما لا يعني هذا أن لا يكوّن المرء رأيا شخصيا، فهو من حقه بالطبع.

يحتوى هذا الكتاب على مجموعة متنوعة من المقالات المختارة التي تطرح إشكاليات متعددة في الفكر والثقافة والتاريخ والإجتماع السياسي. اسعى من خلالها الى أن أطرح افكارا ورؤى سواء على مستوى التحليل الإنثروبولوجي أو النقد المنهجي، لالقاء الضوء على ما يجري في بلادنا من أجل فهم طبيعة واثار هذا الزلزال الكبير الذي ضرب، ولم يزل، المنطقة العربية بقوة ناشرا الفوضى والتعصب وثقافة ديكتاتورية الحقيقه والعنف بلا حدود. والتاكيد على احترام ثقافة التنوع والتعدديه الدينية والسياسية التي لا يمكن الاستمرار بدونها بعد الآن. كذلك اتناول إشكاليات لها علاقة بالذات الجمعيه العربية، وإشكاليات العلاقة مع الآخر في الغرب، والجوار العربي وتحليل ظاهرة الإسلاموفوبيا، ونقد الفكر الديني، وإلقاء بعض الضوء على القضية الفلسطينية من منظور نقدي.

والجانب النقدي على كل حال يحضر بقوة في الكتاب. كما أن السؤال الحضاري موجود، سواء مباشرة أم غير مباشرة في العديد من المقالات، لأن السؤال الحضاري يشكل في تقديري السؤال الأساس الذي يحدد البوصلة التي تحدد بدورها مصير المنطقة العربية ومستقبل الاجيال القادمة.

انا اؤمن بقوة بثقافة التنوير. وثقافة التنوير ليس معطى جاهزا بطبيعة الحال. بقدر ما هي حركة دائمة للفكر، ولطرح الاسئلة وللكشف المعرفي والعقل المنفتح على التعلم.

فمنذ أن طرح الأمير شكيب أرسلان سؤاله المدوي في أوائل القرن الماضي (لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم) ما زال هذه السؤال مطروحا وبقوة في الربع الأول من القرن الحادي والعشرين. إنه السؤال الذي يقع كما يقول محمد عابد الجابري، ضمن ثنائية الاتحاد والترقي بلغة عصر النهضة، أو الوحدة والتقدم بلغة هذا الزمن. وما نراه الآن هو انهيار عام سواء على مستوى التشرذم والتفتت المجتمعي، وتراجع حضاري فاق كل تصور، يُعبر عنه في نمو اشد انواع التطرف والعنف وثقافة الغاء الاخر.

هل توجد وصفة للتقدم كما في الوصفات الطبية والغذائية؟ انه سؤال ليس من السهل الاجابة عليه. لكن دعني أحدد أولا خلاصة نظرية استنتجتها من خلال التجارب التاريخية. أنظمة ديكتاتورية الحقيقة، خاصة نظام الحزب الواحد ونظام الحزب الديني، وكلاهما يستندان على نظرية الملكية الحصرية للحقيقة، خرجا من التاريخ عمليا، ولا أعتقد أن إحياءهما عاد ممكنا. والسؤال حول التقدم يحيلنا الى طموح العلوم الإنسانية تاريخيا

الى وضع قوانين تقترب من دقة العلوم الطبيعية. توجد مقاربات عدة لتحقيق التقدم، منها السياسي والاقتصادي والثقافي.. الخ. لكننا نعرف من خلال تجارب الشعوب الاخرى، أن كل ثقافة تختار طريقها للتقدم انطلاقا من ظروفها. لهذا السبب نجد أن مدرسة النسبية الثقافية ترى أن كل ثقافة قادرة على التطور من خلال بيئتها واداوتها الخاصة بها. لكن رغم اراء نظرية "نسبية الثقافة"، بات من شبه المتعارف عليه وجود قواسم مشتركة بين الثقافات حول عدد من الامور. مثل ارتباط التقدم بشروط لا غنى عنها، مثل وجود ثقافة التسامح وقبول الآخر على المستوى المجتمعي، ووجود عقد إجتماعي على مستوى الوطن، يحفظ كرامة المواطن، وينشد العدالة الإجتماعية، ويفسح المجال للآراء المتعددة لكي تعبر عن نفسها بلا تضييق.

اخيرا اتوجه من القلب الى الجيل الجديد من شباب وشابات بلاد العرب: افتحوا قلوبكم وعقولكم للحياة ولا تقعوا فريسة الافخاخ الأيديولوجية. من المحزن أن جهود جيلنا قد فشلت في أن تكون لنا ولكم اوطانا نفتخر بتقدمها. لكن عندي إيمان عميق أن مستقبلا افضل سيقوم من بين ركام التيه والضياع والدماء والإحباط الذي تعيشه المنطقة العربية في السنوات الاخيرة.

انفتحوا على الفكر بكل تنوعه. إن قوة بلادنا ورفعتها هي من قوة التنوع فيها.

والله الموفق.

د. سليم نزال

كانون اول 2014

اوسلو النرويج

حول ظروف تشكل مفهوم العروبة الحديث

أريد أن تقدم هذه الإضاءة خلفية تاريخية عن الواقع العربي الذي تشكل في معظمه في مرحلة ما بين الحربين العالميين. خاصة أن هناك قسطا وافرا من المشاكل التي نعانيها الآن، إن لم يكن جلها، تمتد جذورها الى تلك المرحلة. فحتى تلك المرحلة لم يكن العرب يديرون شوؤنهم بانفسهم، فلقد تم غيابهم عن مسرح السياسة والحكم حوالي الف عام تغير فيها العالم كثيرا.

من الصعب الحديث عن الوجود العربي على مسرح التاريخ بدون ربطه بالاسلام، الذي اعطى العرب دورا حضاريا يعادل الادوار التي لعبتها أمم ساهمت بالحضارة الإنسانية مثل اليونان والرومان والصين والهند. ولهذا السبب، ارتبطت كلمة عربي بكلمة مسلم في معظم الفترة الماضية. ما عدا القرون الاخيرة، عندما بات الاتراك يمثلون الشرعية الإسلامية. وباتت كلمة تركي تعادل تقريبا كلمة مسلم. لكن رغم ادراك العرب انهم المساهم الاكبر في اعطاء البعد الكوني للاسلام كونه انطلق من البيئة العربية، وكون العرب ممن حمل لواءه الى مختلف بقاع الدنيا. ظلت كلمة مسلم طيلة العصور الماضية، هي التعريف الابرز الذي يعبر عن هوية العربي الفردية والجمعية والتاريخية. بعد ذلك دخلت في الإسلام شعوب عديدة، وصار الإسلام البوتقة التي انصهرت فيها ثقافات عدة. ولعب المسلمون من غير العرب ادوارا اساسية في الحكم، ولفترات طويلة. لكن يجب القول إن قبول العرب للحكم الأجنبي كان على خلفية دينية

تسمح وتبرر ذلك من وجهة نظر اسلامية وبالتالي لا تنظر اليه كاحتلال اجنبي.

على اية حال من المهم التفريق بين امرين، العرب من ناحية اثنية أي الذين يتحدثون اللغة العربية والذين يشعروا بهذا الإنتماء الطبيعي بغض النظر عن أصولهم العرقية الفعلية، وبين العروبة أي الأيديولوجية السياسية بدأت بالتشكل والظهور في القرن التاسع عشر، والتي سعت الى تأسيس كيان سياسي يجمع العرب. ولذا ليس من المستغرب ان منشورات الجمعيات القومية كالجمعية القحطانية، وجمعية العربية الفتاة، كانت تخاطب العرب بابناء لغة الضاد. وهذا الأمر ليس صدفة بطبيعة الحال. فالعدو الذي كان يمنع العرب من حق تقرير مصيرهم كان مسلما مثلهم، لذا كان من الضروري التأكيد على العامل اللغوي الذي يميز العرب عن الاتراك وكذلك عامل يجمع العرب مسلمين ومسيحيين. وقد ترافق ذلك مع جهود عربية لاجل عصرنة اللغة العربية، خاصة وأن تلك الفترة شهدت ظهور القوميات، ومنها القومية الطورانية التي مارست ضغوطا ثقافية على العرب فيما اسمى في التاريخ العربي بمرحلة التتريك. وهناك أدلة عديدة تؤكد أن العرب باتوا يشعرون بكيانهم المعنوي كعرب في هذه المرحلة، ولعل الحدث الذي حصل عام 1912 عندما قصف الاسطول الايطالي بيروت بسبب تأييد إيطاليا لابناء طرابلس الغرب. يؤكد على بداية نهوض عربي بدأت سحبه تتجمع وتتراكم هنا وهناك، لتفرز ما عرف لاحقا بالقومية العربية كحركة سياسية تهدف الى اقامة دولة في كل الاقاليم التي تتحدث بالعربية.

السؤال الهام الذي أثير لاحقا والذي يستحق إلقاء الضوء عليه هو، ما الذي جعل العرب يختارون التحالف مع الغرب (انجلترا وفرنسا) ضد الاتراك، المفترض أنهم أخوة في الدين؟ أهمية هذا السؤال، أنه يسعى لفهم مناخ التحولات الفكرية والأيديولوجية التي كانت تحصل في العقل الجمعي العربي في تلك الفترة. لان هذه التحولات لم تكن عارضة أو وليدة اللحظة بل بسبب عدد من التراكمات التي أدت الى ذلك، هذا على الرغم أنها كانت تتعارض مع منظومة العقل الجمعي العربي الديني. ورؤية العرب التي تستند الى الدين الإسلامي في تحديد الصديق والعدو. حيث أن مرتكزات المنظومة الدينيه هي التي تحدد مفهوم الصداقة والعداء أو دار الحرب ودار السلم.

إذا يمكن القول ان التعارض مع الاتراك كان تعارضا سياسيا اذا جاز التعبير، اما التعارض مع الغرب فقد كان تعارضا أيديولوجيا. وباختيار العرب الوقوف مع الغرب فانهم بذلك كانوا يقدمون السياسى على الايديولوجى. هذا التحول كان مؤشرا على تغيرات عميقة في الفكر العربي لانه كان يعنى خروجا عن الموروث الثقافى العربي الإسلامى. اما لماذا حصلت هذه النقله الفكريه، هناك عدة تفسيرات: منها ما يتعلق بظلم العثمانيين الذي تجاوز القدرة على التحمل خاصة في مراحله الاخيره، ومنها تاثيرات المناخ القومي الذي بدا يتشكل، ومنها المساهمة الفعالة في الفكر القومي للعرب المسيحيين. و الاتجاهات الإسلاموية الراهنة عادة ما تنزع الى تفسيرذلك عبر اتهام المسيحين العرب في قيادة التيار المعادى المعارض للدولة

العثمانية، وهو تفسير ينحو باتجاه نظرية المؤامرة و لا ياخذ بعين الاعتبار التحولات و المناخ العام في تلك المرحلة.

معظم الابحاث التي تحدثت عن تلك المرحلة، كانت غالبا ما تعتبر نقطة البداية مرحلة التثاقف العربي مع الغرب أو التأثيرات الغربية في القرن التاسع عشر خاصة منذ حملة نابليون وتاثيرها في ايقاظ الشرق. وانا لست مقتنعا تماما من اعتبار تلك المرحلة فعلا مرحلة البداية الاولى، لاننا نعرف أن المراحل الإنتقالية الكبرى تحتاج لوقت لبلورة الهوية الجديدة، وهذا الأمر يتطلب تراكمات طويلة لفرز "نقلة (أو طفرة) نوعية"، كما يقول الماركسيون.. ولكي أكون أكثر دقة، أتحدث بصفة خاصة عن التحولات في منطقة ما يعرف بالهلال الخصيب التي اعتبرت الحاضن الأول للفكر القومي العربي. وعلى أية حال يبدو لي أن هناك القليل من الابحاث التي رصدت بدايات التحولات البطيئة منذ القرن السادس عشر والثامن عشر، التي اوصلت في النهاية الى مرحلة التحول الكبرى. ولربما تكون حركات التمرد التي قام بها الاقطاع في القرن السادس عشر مع حركة الامير فخر الدين الثاني، وظاهر العمر في بلاد الشام، ومحمد علي في القرن التاسع عشر في مصر ارهاصات لتحولات لم تنضج الا بعد حوالي القرنين.

هذه الارهاصات والتمردات لم تكن تطرح خيارات هوية قومية واضحة بالاستقلال عن الدولة العثمانية، الا أن حالة التمرد كانت تقوي فكرة التمايز عن الاتراك، وتساهم تدريجيا في تعزيز الثقة بالنفس وتقوية الذات الجمعية. لا بد أنها ساهمت تدريجيا في اضعاف شرعية الحكم العثماني خاصة في مراحل

لاحقة، عندما بدا ينظر اليه كحكم اجنبي محتل. وهذا أمر طبيعي لان النظره اليه كحكم أجنبي لم تكن موجودة بسبب الآنسجام وعمق الصلة ما بين النظام الحاكم ومنظومة الافكار الشعبية الدينية. وبالتالي فان النظرة اليه على انه حكم أجنبي تعزز الفكرة التي تقول ان المرحلة شهدت زحزحة على مستوى اليقينيات الفكرية المتوارثة. لكن من المهم التأكيد أن هذا التحول سار ببطء لان تغيير ما يعرف باليقينيات السوسيو ثقافية يتطلب وقتا. وانا اتذكر انه حتى عهد قريب كان تعابير مثل (الشعب المسلم) أو (الشعب المسيحي) من التعابير التي كانت تستخدم للتعبير عن الهوية والإنتماء في عدد من البلدان العربية المتعددة الاديان. وهذا ليس بالمستغرب لان الإشكاليات المتعلقة بالهوية، وكيفية تعريف الذات الفردية والجمعية تحتاج عادة لوقت لكي تتبلور. وقد شهدنا منذ زمن غير بعيد تعقيدات هذا التحول لدى انحلال الاتحاد السوفياتي كما شهدنا مرارة وآلام وتعقيدات هذه التحولات إبان تحلل الجمهورية اليوغوسلافية.

والسبب الأساس يكمن في أنه حين تسقط الهوية الفردية والجمعية القديمة والمتعارف عليها تحل مكانها هويات جديدة وهو مخاض له تعقيداته وصعوباته. ورغم مناخ التحولات هذا، ظل العديد من النخب العربية، خاصة ذات التوجه الديني حتى قبيل الحرب العالمية الاولى، تعتقد بامكانية الاستمرار بصيغة ما ضمن الدولة العثمانية، ولذا لم تكن تؤيد فكرة الإنفصال التام. وهذا يؤكد كما بات معروفا إن الولاءات القديمة لم تزل قوية الى حد ما، وبالتالي لم تكن كل النخب العربية قد حسمت

خياراتها تماما، وإن كان الأمر يتفاوت باعتقادي بين تيار فكري وآخر.

وقد بدا هذا واضحا في مؤتمر باريس العام 1913 الذي تبنى فكرة اللامركزية أو الحكم الذاتي العربي، وليس الاستقلال التام للسكان العرب الذين كانوا يشكلون الاغلبية في الدولة. لانهم كما قال عضو المؤتمر الشيخ أحمد طبارة لا يريدون الإنفصال عن الدولة العثمانية. إنما يريدون تنفيذ الاصلاحات المطلوبة واتباع نظام اللامركزية. لذا فاننا حين نسعى لفهم ظروف تشكل الوعي القومي العربي، لا بد لنا من السعى لتفكيك التاريخ لاجل فهم افضل للاسباب التي دفعت بهذا الفكر الحديث لان يتشكل وينمو. لذا فاني أعتقد بوجود عوامل عديدة لعبت دورا لاجل أن يصل العرب الى مرحلة يتحالفون فيها مع الغرب. لا شك أن عوامل الاحتكاك بالغرب والتعرف على أفكار جديدة من خلال المدارس التبشيرية اضافة الى الإستبداد والضغط الثقافي التركي، لعبت كلها دورا في اضعاف شرعية الحكم العثماني التركي الذي بدا لعرب تلك الفترة انه حكم تركي أكثر منه حكم عثماني لكافة رعايا الدولة.

ومن أحد أبرز الاسباب التي لعبت في اعتقادي دورا مهما، هو أن نقد الدولة العثمانية لم يأت فقط من مثقفين مسلمين علمانيين أو متاثرين بالغرب، بل أيضا من نخب مسلمة قامت بنقد الدولة العثمانية من ذات الموقع الأيديولوجي، من امثال عبد الرحمن الكواكبي الذي لم ينقد السياسة العثمانية المستبدة فقط، بل قام بنزع الشرعية عنها عندما أكد على عروبة الخليفة بل على أنه يجب أن يكون قريشيا. هذا النقد كان ربما الاصعب

للدولة العثمانية، لأنه يأتي من رجال دين مسلمين. في الوقت الذي كان بوسع الدولة اتهام المسلمين العلمانيين والمسيحيين بالعمالة للغرب كما حصل مع دعاة القومية العربية الذين اتهموا بتعاملهم مع فرنسا، وتم شنقهم في المحكمة العرفية في عالية في جبل لبنان وساحة المرجة في دمشق.

وحتى تلك الفترة لم يكن الغرب معروفا جيدا للعرب. ولعل النظرة الايجابية العربية للغرب كانت هي الطاغية، بسبب ان العرب سمعوا أو شاهدوا بل وانبهروا بانجازاته العلمية من خلال البعثات التبشيرية وكذلك من خلال ما عرفوه من البعثات العلمية التي كانت ترسل الى الغرب.

وممن كتبوا عن ذلك كان الشيخ رفاعة الطهطهاوي الذي كان المرشد الديني للطلبة المصريين في فرنسا الذي تأثر بما شاهده من عمران في باريس، في كتابه (الابريز في تخليص باريس).

هذه العوامل مجتمعة شجعت العرب على الثقة باوروبا، دون أن ننسى أن نذكر أن تجربتهم كانت محدودة جدا في مسألة العلاقات الدولية بسبب غيابهم الطويل عن الحكم السياسة. ولم يكن العرب يملكون الخبرة السياسية الكافية لمعرفة أن التحالف مع الغرب، سيؤدي لاحقا الى وقوع العرب في مشاكل أكبر لا يزالون يعانون منها حتى الآن.

على كل حال لا يمكن فهم هذا الحراك الا في إطار المناخ الذي بدأ يتشكل ويسمح بمقاربات دينية وسياسية جديدة تسمح بنزع الشرعية السياسية والدينية عن العثمانيين. ولعل تعبير

الشريف حسين الشهير "إننا عرب قبل أن نكون مسلمين" يعبر عن هذا المناخ الجديد من تاريخ العرب.

وقد يكون من مفارقات التاريخ العربي أنه في ذات العام الذي اعلن فيها العرب ثورتهم على الحكم التركي، كانت الدول الغربية المفترض انها حليفة للعرب توقع في الخفاء على تقسيم المنطقة.

على الرغم من اننا نستخدم تعبيرالعرب في هذا المقام، لا بد من توضيح ما هو المقصود بكلمة عرب في تلك المرحلة التاريخية. على الرغم من أن التاكيد كان دوما على أهل لغة الضاد وأن أسماء الجمعيات مثل (الجمعية القحطانية) كانت تشير الى ذلك. الا أن الحراك السياسي في تلك المرحلة لم يكن يشمل العرب بذات المضمون والبعد الجغرافي كالذي نستخدمه اليوم. تعبير العرب كان يعني على مستوى الحراك السياسي، بلاد ما يعرف بالهلال الخصيب والجزيرة العربية.

ومعنى هذا ان التعريف لم يكن يتعدى الجزء الآسيوي في بلاد العرب. في مصر التي احتلها الإنكليز العام 1882 ظهرت حركة القومية المصرية التي عبرت عنها جمعية مصر الفتاة والحزب الوطني، حيث برز هناك قادة مصريون مثل سعد زغلول وسواه من دعاة القوميه المصرية التي اعتبرت التاريخ المصري القديم أي تاريخ ما قبل الإسلام مرجعيتها الحضارية. ولعل التاريخ المصري كان يسير متناقضا الى حد ما مع توجهات بلاد الشام والعراق. في الوقت الذي كانت فيه مصر تحت الاحتلال البريطاني كانت النظرة المصرية العامة الى الدولة العثمانيه نظرة ايجابية، بل كانت هناك آمال مصرية

بمساعدة عثمانية لهم ضد الإنكليز. على عكس الواقع الشامي الذي كان تحت هيمنة الدولة العثمانية، حيث كان هناك قطاعات واسعة تتطلع للخلاص منها وتعتبرها قوة احتلال.

لكن مع الوقت ذابت القومية المصرية شيئا فشيئا في القومية العربية بسبب وحدة اللغة بين المصريين وسائر العرب. ومن المعروفة أن اللغة هي أحد أهم العوامل في تشكيل القوميات في مرحلة القرن التاسع عشر. ولعل غياب التمايز اللغوي وتأسيس الجامعة العربية، والمشاركة في حرب فلسطين من العوامل التي دعمت في نظري فكرة القومية العربية في مصر. وما أن جاءت ثورة الضباط الاحرار الذين تبنوا تدريجيا فكرة القومية العربية حتى باتت مصر تعتبر المعقل الأساس للقومية العربية في عقدي الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي.

إذن يمكن الإستنتاج أن القومية العربية كانت من ناتج الصراع مع الآخر التركي المسلم وليس مع الغرب. ولعل ذلك من اسباب ارتباط الفكر القومي العربي بالعلمانية منذ نشأته. ولعله كان من الضروري التأكيد على الخصوصية الاثنية، لان الصراع كان يدور مع الآخر المسلم. وكان من الطبيعي أن تشحذ فيه كل الأسلحة ذات الطابع القومي التي تساعد على التخلص منه. على سبيل المثال يلاحظ المرء خلو كتابات ساطع الحصري وهو من اوائل المنظرين للفكر القومي من الاشارة الى نصوص دينية. لكن العامل الديني الإسلامي كان يبرز أكثر واكثر عندما يكون الصراع مع الآخر الاوروبي الغربي المسيحي.

وبالفعل فان عامل الدين بدأ بالبروز في حركات النضال ضد الاحتلال الغربي. لكن العامل الديني كان نوعا من الفكر الديني الوطني، ولم تكن الحركات الاصولية قد ظهرت بعد كما في مراحل لاحقة.

كانت مرحلة الحرب العالمية الاولى هي المرحلة التي تم فيها بناء الشرق الاوسط بما يتناسب مع تطلعات ومصالح الدول الاوروبية المنتصرة. كانت النتيجة كما هو معروف أن العرب فشلوا في اقامة دولة قومية كما حلموا اثناء النضال ضد الدولة العثمانية. وحصلت تقسيمات سايكس بيكو كما هو معروف، التي بدأت أول الأمر في مناطق نفوذ بين الحليفين الإنكليزي والفرنسي. وبعدها تحولت الى كيانات سياسية بدأت تكتسب الشرعية مع مرور الوقت. وزاد الأمر سوءا بعد زرع الكيان الصهيوني في قلب المشرق العربي الأمر الذي وضع المنطقة العربية في صراعات وحروب ما تزال دائرة حتى الآن.

إشكالية العلاقة
بين الشرق العربي الإسلامى والغرب

مصطلح الشرق يدل على ذلك الفضاء الواسع الذي يشمل الشعوب الصينية والهندية والعربية والتركية والفارسية الخ لكنى اتحدث هنا عن الشرق الذي يسمى احيانا الشرق. ولذا فانى هنا استبعد الشرق الكبير بالمعنى الواسع للكلمة.

وبالشرق الأوسط أشير الى الشعوب الأساسية في المنطقة التي قدمت اسهامات متفاوتة في حضارة المنطقة. وأعنى بذلك الفرس والاكراد والامازيغ والعرب والاتراك، كما أعنى بطبيعة الحال الإسلام بتنوعاته والمسيحية بتنوعاتها، وكذلك الاديان الصغيرة مثل الصابئة واليزيدية الخ. ولكن الاضاءة هنا ستكون محددة بالفضاء العربي.

وبالغرب أعنى بالطبع اوروبا وبناتها مثل شمالي امريكا واسترالية ونيوزيلندا وهى بلاد كما هو معروف تشكل امتدادا للحضارة الاوروبية التي تمكنت من السيطرة على ما يسمى بالعالم الجديد عبر أساليب ماكرة متعددة لم تخل من عنف وقهر ضد السكان الاصليين.

وللإضاءة على الصورة النمطية الغربية لا بد من الاستفادة من أفكار الدكتور منير العكش الذي يسلط الضوء على المقاربة التوراتية للمستعمرين الغربيين في امريكا. حيث اطلق المستعمرون وصف الكنعانيين على السكان الاصلين

والعبرانيين على المستعمرين. والكنعانيون في مفهومهم هم الاقل حضارة، وهم الذين ينبغي تدميرهم الأمر الذي قد يفسر الهمجية الغربية ضد السكان الاصليين الذين أسموهم (الكفار العزل) بسبب عدم معرفتهم بثقافة الحرب والسلاح. وهذا النمط من التفكير هو جزء من صورة نمطية لها تاريخ طويل. وهذا هو بالذات جوهر الفكر الصهيوني الذي يرتكب في فلسطين كل هذه الجرائم ضد بمسوغات توراتية من العصر الحجري.

ولذا عندما نتحدث عن الإشكالية بين هذين العالمين فان الأمر يتجاوز سوء خلاف بين جيران، أو صراع يمكن تحديده ضمن إطار زماني أو مكاني معين. ولقد عبر الشاعر الإنكليزي كبلنغ عن التناقض الموجود بين الشرق والغرب في قصيدة قال فيها "ان الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا". قيلت هذه القصيدة في القرن التاسع عشر الذي كان الاستعمار على أشده والذي شهد ولادة علم الإنثروبولوجيا لدراسة الشعوب الغير اوروبية، وحيث نشط فيه الاستشراق الغربي، الذي رآه ادوارد سعيد ليس سوى افتراضات أيديولوجية وصورا للشرق من إنتاج العقل الغربي.

على كل حال، اذا ما استعنا بالتعريف الآنثوسياسي لمفهوم الصراع فنحن نرى أنه يوجد نوعان اساسيان من الصراعات الدولية. النوع الأول الذي يسمى صراع المصالح. ومثل هذا الصراع يدور عادة حول مناطق حدودية مختلف عليها أو حول جزيرة أو منطقة متنازع عليها. هذا النوع من الصراع يتم حله سواء سلما أو حربا. وهو من نوع الصراعات التي يمكن تحديدها في الزمان والمكان والنظرة السلبية لكل طرف عن

الآخر تتوقف عند حل المشكلة. أما النوع الثاني من الصراع فهو الذي ياخذ طابع الصراع الشامل بكل الابعاد السياسية والعسكرية والثقافية، وهذا النوع من الصراعات يكون عادة أكثر تعقيدا من النوع الأول بسبب دخول عناصر الثقافة والقيم والنظرة للكون والنظرة للذات مقابل الاخر.

لذا فإشكالية هذا الصراع أنها متتعددة الأبعاد وتشمل الجيوبوليتيك والاقتصاد والثقافة كما تشمل الصراع الحار والبارد كما تشمل التثاقف. وهذا النوع يصبح أكثر تعقيدا بسبب الفعل التراكمي للصراع، الأمر الذي يؤدي الى تكوين صور نمطية ممتدة عبر الزمن بسبب الصراعات المتواصلة عبر التاريخ التي تنتج "مخيالات" معينة لكي نستخدم تعبيرا صاغه المرحوم محمد اركون. فعلى سبيل المثال ظلت الامهات في ايطاليا حتى عهد قريب يخوّفن اطفالهن من الخروج ليلا لان هاني بعل على الابواب.

!Hannibal ad portas

وهذا موروث من الحروب البونيقية التي دارت رحاها بين القائد هاني بعل والرومان والتي شهدت أكبر عملية قتل جماعي في التاريخ القديم حيث تم احراق قرطاجة بسكانها.

والصورة النمطية للعربي والمسلم هذه الأيام ليست بعيدة عن الصورة النمطية القديمة التي تصوره في مستوى أدنى في سلم الحضارة، والتي تصوره كمهدد للحضارة الغربية. وهو أمر كتب ليس في بعض مراكز الابحاث الغربية فحسب بل حتى قيل علنا على لسان مسؤولين كبار مثل طوني بلير..

اذن، تحتاج هذه الإشكالية الى محاولة فهم كيفية تشكلها عبر الزمن لاجل فهم أفضل لتعبيراتها السياسية والثقافية.

وافضل وسيلة للوصول لهذا الهدف هو معرفة المنظور التاريخي لطبيعة العلاقة ما بين اوروبا والشرق الاوسط لان من شأن ذلك أن يسهم في الاضاءة على نوعية العلاقة التي تكونت عبر التاريخ..

لكن ستظل هذه الاضاءة محدودة لان دراستها وتحليلها تتطلب أكثر من دراسة محدودة..

لكني ساسعى بما امكن تسليط الضوء على المفاصل الرئيسية لهذه العلاقة كما تشكلت عبر الاف السنين.

أولا، منطقة الشرق الاوسط واوروبا منطقتان متجاورتان ومتفاعلتان، ومن المؤكد أن الثقافة اليونانية استفادت من حضارات الشرق الاوسط القديمة خاصة بلاد الرافدين وبلاد فارس ومصر الفرعونية وبلاد الشام الكنعانية. فعلى سبيل المثال الإله أدونيس اليوناني ما هو إلا الإله الكنعاني أدون الذي بات أدونيس لدى تبنيه من اليونان.

معنى ذلك أن العلاقة ما بين هذين الفضائين ممتدة لآلاف السنين وربما منذ مراحل التكون الاولى للمجتمعات.

فعلى سبيل المثال يمكن معرفة عمر معرفة اوروبا بالهند أو الصين التي لا تتجاوز بضعة مئات من السنين لكن من الصعب جدا في اعتقادي معرفة عمر العلاقة ما بين الشرق اوسط واوروبا. ولعل الاسطورة الكنعانية التي تفيد أن إمراة نصفها بشر ونصفها سمكة اسمها اوروبا سافرت من مدينة صيدا الفينيقية واعطت اسمها لاول يابسة تضع اقدامها عليها وهي

اليونان حيث اطلق الاسم على القارة باكملها تدلل بوضح، اذا ما طبقنا نظرية ليفى ستراوس في فهم دلالات الاسطورة، على علاقة قديمة جدا ما بين هذين العالمين.

اما اذا اردنا تلخيص العلاقة فيمكن القول انها كانت علاقة صراع وتفاعل حضاري.

ففي اثناء تلك الصراعات تبادل الطرفان غزو الاخر. فقد غزت قوات سورية قرطاجية اسبانيا العام 264 قبل الميلاد، وغزت قوات فارسية اليونان في القرن الخامس قبل الميلاد وغزت قوات عربية اسبانيا في العام 711 بعد الميلاد واجزاء من ايطاليا وفرنسا، وغزت قوات تركية عثمانية اوروبا عام 1532 وحاصرت فيينا التي تمت نجدتها من قبل قوات بولندية. كما غزت قوات يونانية بقيادة الاسكندر منطقة الشرق الاوسط في 335 قبل الميلاد، وغزا الرومان المنطقة في 63 قبل الميلاد ثم غزت قوات اوروبية في مرحلة الحروب الصليبية منطقة بلاد الشام 1099 واقامت ممالك لحوالي 200 عام، ثم في القرنين التاسع عشر والعشرين وقعت المنطقة كلها، ما عدا تركيا، في قبضة الاحتلالات الاوروبية المختلفة.

ومن المراحل المفصلية في العلاقة بين العرب والغرب كان الغزو العربي لاسبانيا والبرتغال وحتى جنوبى ايطاليا في القرن الثامن. ولا افهم لِمَ يصر العرب حتى الآن استخدام تعابير مثل فتح الآندلس بدل التعبير الصريح انه كان غزوا، بينما يتم استخدام تعبير غزو واحتلال عندما يتعلق الأمر باحتلال بلادنا. على كل حال، استمر الوجود العربي قرابة الثمانمئة عام شهدت البلاد الكثير من التفاعل الحضاري بين الجانبين الذي يمكن

لمسه حتى الآن سواء في تاثير العربية على اللغة الاسبانية، أو المعالم العربية في الآندلس. لكننا ما زلنا نفتقد في الدراسات العربية الى دراسات انثروبولوجية أكثر تتعلق بهذه المرحلة من مراحل التفاعل الحضاري المهمة. على الرغم من أن الآندلس شهدت في فترة الحكم العربي نهضة حضارية تعايشت فيها الاديان الابراهيمية الثلاثة، الا ان ذلك لم يمنع من نظر الاسبان الى العرب كمحتلين، الأمر الذي ساهم في تغذية صور نمطية كالتي تحدث دوما مع الصراعات المريرة. وقد قام الاسبان كما هو معروف بحرب الاسترداد التي أدت الى طرد العرب عام 1492 بلا رحمة.

ولعل حركة الحجاج كما سمّى مؤرخو اوروبا الحروب الصليبية في القرن التاسع عشر أو حروب الفرنجة كما اسماها العرب، كانت أيضا فرصة للطرفين للتعرف على الآخر بهذا القدر أو ذاك. فهذه الحرب بدأت بشعار البابا اوربان الثاني الذي بات شعار الحملات الصليبية كلها

!Deus Vult

أي أن الله هو الذي شاء هذه الحرب وليس أمام المسيحيين في اوروبا سوى الإنخراط فيها لكي تغفر لهم خطاياهم. ووجهة النظر الإسلامية التي اعتبرته عدوانا لا بد من التصدي له الأمر الذي عزز من ثقافة الجهاد في تلك الفترة.

وهنا لا بد من الاشاره بهذا الصدد أن دراسة المرحلة الصليبية في بلادنا مقتصرة على الحرب فقط وهو أمر يفتقد الى الدقة والطرح الموضوعين لانه من غير الصواب اختزال

مرحلة 200 عام من الوجود الاوروبي في منطقة بلاد الشام بانها تاريخ حرب فقط.

فكما يقول المؤرخ الفلسطيني نقولا زيادة حصلت هناك أيضا تبادلات تجارية خاصة في مراحل الهدن حتى أن أحد فرسان العرب اسامة بن منقذ تحدث بايجابية أن للصليبين فرسان لا يقلوا شانا عن الفرسان العرب.

أما الاوروبيون فقد تحدثوا عن اخلاق وفروسية صلاح الدين. لكن لاجل الفصل ما بين صلاح الدين والقيم التي تربى عليها تم تفسير ذلك عبر تعزيز صورة نمطية سلبية تجاه العرب والمسلمين وهي أن صلاح الدين تربى في دير مسيحي..

ولذا ليس من الصعب الاستنتاج أن طول بقاء الاوربيين لحوالى 200 عام لا بد انه اوجد نوعا من

Modus Vivendi

علاقة تعايش على أرض الواقع لطرفين متصارعين.

ومن الدراسات القليلة بهذا الصدد دراسة للدكتور حسين عطية تحت عنوان معرفة الصليبيين للعربية في القرنين الثاني والثالث عشر حيث يرى عطية أن الجيل الثاني والثالث من الاجيال الاوروبية وما تلاهما من الاوروبيين الذين عاشوا في سوريا تأثروا بالثقافة العربية الى حدود معينة. لكن بالرغم من هذا التأثير الذي عبر عنه بتعلم الاوروبيين من الثقافة العربية إلا أنه لا يوجد حسب علمى دراسات عربية تدل على تغير جوهري على المستوى المفاهيمي في الغرب تجاه العرب.

كذلك بسبب قلة الدراسات العربية في هذا الأمر، فمن الصعب معرفة الحد الذي اثر فيه الصليبيون في سوريا على

المستوى الثقافي باستثناء القلاع التي لم تزل موجودة الى الآن في سورية والاردن ولبنان وفلسطين.

ولذا أعتقد أن المكتبة العربية تفتقد بالحد الذي أعرفه الى كتابات تدرس تلك المرحلة من منظور الاحتكاك الثقافي الذي حصل بين الطرفين وتاثيرات ذلك على العلاقة ما بينهما سواء على مستوى معرفة الآخر وتاثير ذلك على نوعية الصور النمطية لكل طرف تجاه الاخر.

وهناك علاقة مؤكدة ما بين الصور النمطية ومستوى المعرفة الحقيقية أو المتخلية. وقد قابلت أكثر من مرة غربيين غيروا الصور النمطية عن المجتمعات العربية بعد زيارتها والتعرف عليها كما هي وليس من خلال "الميديا" التي غالبا ما تنقل صورا مجتزأة ومبسطة وكاريكاتيرية. هذا اذا افترضنا حسن النية لانه هناك إعلاما صهيونيا متحالفا مع قوى يمينية يسعى كل جهده لتشويه الحضارة العربية والاسلام.

لكن الاحتكاك المرتبط بالتمدد الكولونيالي باتجاه الشرق كان له تاثيرات أكثر عمقا عما كان عليه الوضع في مرحلة الحروب الصليبية. ولعل السبب يعود أساسا الى أن العرب اثناء الحروب الصليبية كانوا يرون انفسهم متفوقين حضاريا على الاوروبيين رغم الاحتلال، وهذا ما نلاحظه من خلال أدبيات تلك المرحلة التي لم تشهد هزة فكرية ومراجعات تتعلق بأسباب الهزيمة. وتناقش قضايا متعلقة بهوية المنطقة وخياراتها الحضارية كما حصل الأمر إثر غزو نابليون الذي كان بمثابة الزلزال الذي أحدث حراكا غير مسبوق في المنطقة، والذي اعتبره المؤرخون العرب الدافع الأساسي لما بات يعرف بعصر النهضة العربية

الذي بدا في اواسط القرن التاسع عشر واستمر بما يقارب المائة عام عرفت المنطقة خلاله أهم حراك فكري، ربما الأهم منذ عصر التدوين في القرن السابع. أهمية هذا الحراك تكمن في أنه بات يطرح اسئلة مهمة لخصها الامير شكيب ارسلان في سؤال: "لماذا تقدموا ولم نتقدم نحن؟".

بعبارة اخرى، إن الاسئلة تجاوزت سؤال لماذا تفوق المدفع على السيف. أي انها لم تقتصر على جانب التفوق العسكري فقط بل تعدته الى اسئلة شاملة تتعلق بالهوية والحضارة والمستقبل والاسباب التي جعلت الدولة الاوروبية الحديثة تتفوق على الدولة العربية السلطانية. وهذا ما اثار بطبيعة الحال نقاشات حول مسائل لم تطرق من قبل بل كانت من اللامفكر به في الثقافة العربية مثل مسألة الدولة الحديثة بآلياتها البرلمانية والدستورية والقضائية وقضايا إجتماعية تخص التعليم والثقافة والمراة وتطور المجتمع الخ.

لكن العرب ميزوا ما بين التعلم من الغرب والاحتلال الغربي. بل لقد اعتبر الروائي الجزائري كاتب ياسين اللغة الفرنسية غنيمة حرب. ولعل وصف المرحوم محمد عابد الجابري كان موفقا عندما وصف العلاقة مع الغرب بانها علاقة حب وكره في الوقت عينه. وقد برزت في تلك المرحلة ثلاثة تيارات أساسية، الاولى كانت ترى أن على العرب تبنى منهج الغرب كوسيلة وحيدة للتطور، والثانية قالت بفكرة المزج، أي الإنتقائية بحيث يأخذ العرب ما يناسبهم، والثالثة التي برزت ربما فيما بعد ركزت بصورة أكثر على التطور من خلال

الإسلام وقامت بالتفريق ما بين الأخذ بالحضارة المادية والتكنولوجية ورفض القيم الثقافية الغربية.

لكن جاءت بداية القرن العشرين لتسدد ضربة قاضية لإمكانية التقارب العربي الاوروبي وذلك من خلال الخيانة التي شعر بها العرب اثناء مشروع الثورة العربية الكبرى حيث تحالف العرب مع الغرب ضد الدولة العثمانية وذلك مقابل دولة عربية واحدة في الجزيرة العربية ومنطقة الهلال الخصيب. ففي الوقت الذي أعتقد العرب انهم بمساعدتهم انكلترا وفرنسا سيحصلون على الاستقلال وحق تقرير المصير وهو أمر لم ينفذ بسبب اتفاقية سايكس بيكو التي قسمت المنطقة ما بين انكلترا وفرنسا العام 1916 وفي العام 1917 جاءت الضربة الثانية عبر تصريح بلفور لمنح فلسطين وطنا قوميا لليهود الأمر الذي رفضه العرب واعتبروا ذلك خيانة اضافية للعرب.

ثم جاء زرع الكيان الصهيوني في قلب المنطقة العربية بدعم غربي كبير ليزيد الهوة ما بين العرب والغرب.

فمنذ العام 1948 تاريخ زرع اسرائيل باتت المنطقة مسرحا للحروب الأمر الذي لم يوجد مثله في أي منطقة من العالم. فقد حصلت سبعة حروب كبيرة و5 حروب صغيرة ومتوسطة وهو ما ساهم بلا ادنى شك في تعميق الصورة السلبية للغرب في العام العربي بل في العالم الإسلامي.

بهذا المعنى يمكن القول أن قيام الدولة الصهيونية في فلسطين لعب دورا اساسيا لاعادة اثارة الجروح القديمة حيث اعتبر العرب الغزو الصهيوني لفلسطين مشابها للغزو الصليبيـ والأدبيات العربية حافلة بمثل هذه التوصيفات.

لقد ساهمت هذه الحروب بلا ادنى شك في تقوية ظاهرة الثقافة العسكرية على حساب الظاهرة المدنية في المنطقة العربية لان الجهود العربية تركزت على الدفاع العسكري الأمر الذي أدى الى سيطرة الطبقة العسكرية على الحكم في عدد من البلدان العربية على حساب الديموقراطية الناشئة في المنطقة. اضف الى ذلك انها ساهمت وقوّت من ثقافة النظرة السلبية للغرب الذي ينظر اليه العرب أنه يتحدث عن حقوق الإنسان في الوقت الذي يدعم الاحتلال الصهيوني وهو أمر شكل في تقديري الأرضية الأساسية لظهور حركات العنف السياسي سواء بطابعها العلماني في السابق أو بطابعها الديني لاحقا.

كما لعبت الصهيونية دورا مهما لاجل استحواذ التأييد الغربي وذلك عبر ضرب العلاقة العربية مع الغرب.

والقضية المعرفة باسم قضية نافون التي حاول فيها الكيان الصهيوني تدمير أهداف أمريكية لاجل تخريب علاقة مصر مع الغرب تؤكد بما لا يدع مجالا للشك الدور التخريبي الصهيوني.

واخيرا جاءت احداث ايلول العام 2001 وما رافقها من حملات استهدفت الثقافة العربية والاسلامية، لتعيد إنتاج الصور النمطية القديمة ولتنتج ما بات يعرف بالاسلاموفوبيا بصورة اقوى من الماضي، أخذا بعين الاعتبار ثورة المعلومات وتاثير ذلك على تشكيل تلك الصور.

إن حديثنا عن الهوة التاريخية، كان لمحاولة فهم هذه الإشكالية التي باتت بفعل التراكم تشكل ظاهرة لا يمكن تجاهلها.

من وجهة نظري، فإن طبيعة الحياة تفترض وجود انواع متعددة من صراع الثقافات. وهذا الأمر موجود منذ بداية

التكوين الحضاري للمجتمعات. توجد صراعات ثقافية في كل مجتمع. كما توجد تباينات مثلا ما بين ثقافة الريف والمدينة، وما بين الثقافة المحافظة والثقافة اللبرالية، وبين الجيل السابق واللاحق والخ.

لكن الصهيونيين برنارد لويس وصموئيل هننغتن وضعا مسألة الصراع ضمن إطار أيديولوجي محدد استهدف الإسلام بصورة واضحة. وهذا ما يغذي في تقديري الصور النمطية وشجع ويشجع على تقوية ظاهرة الإسلاموفوبيا.

فاذا كان هناك صراع وتباينات بين الثقافاتـ فقد كان هناك دوما حوار بين الثقافات، وكانت هناك دوما حلول واكتشاف لافاق جديدة للتفاعل والتعاون.

يمكن الإستنتاج هنا أن مشكلة الشرق الإسلامي مع الغرب هي مشكلة سياسية في المقام الاول. وهذا ما نلاحظه في أن حدة الصراع تزداد اثناء الاحتلال الغربي كما يحصل الآن في العراق وافغانستان وفلسطين.

ولعل لقاءات الحوار الإسلامي المسيحي تساهم رغم اقتصارها على النخب بتجسير الهوة ما بين العالمين. كما أعتقد إن للمثقفين العرب الذي يعيشون في الغرب مسؤولية خاصة بالعمل على صعيد تشجيع الحوار والحد من الصور النمطية.

على كل الاحوال، تظل هذه ظاهرة يتطلب تغييرها تراكم جهود، وربما أجيال. وأعتقد أن حل المشكلات السياسية، خاصة فلسطين، اذا ما حصل سيساهم في خلق مناخات تفاعل تساهم في بلورة علاقات جيدة بين العالمين.

من أجل تسليط الضوء
على تاريخ مغيب في الغرب

"الامبراطور الروماني العربي فيليب
أول من اعترف بالمسيحية في التاريخ".
"الاخبار" اللبنانية. 6 كانون الثاني 2011

من أهم المشاكل التي يعانيها الباحث في الحقب التاريخية العربية القديمة، وتحديداً مرحلة ما قبل الإسلام، التي تغطي المرحلتين اليونانية والرومانية، هو أنّ البحث فيها، وخاصةً في ما يتعلق بدور العرب، أشبه أحياناً بالبحث عن إبرة في كومة من القش. ذلك أنّ المرحلة، أولاً، موغلة في القدم، أضف، إنّ معظم الكتابات التاريخية عن تلك المراحل كان يكتبها أشخاص يمكن وصفهم بأنّهم غير محايدين أو غير مهتمين أو غير مطّلعين، كما ركّز هؤلاء على القوى العظمى لتلك المرحلة، مثل الإمبراطورية الرومانية والفارسية، ولم يكن العرب كذلك، بل كان بعضهم مثل الغساسنة والمناذرة دويلات ملحقة بتلك القوى. أما العرب الذين كتبوا عن هذه الفترة في مراحل لاحقة، فإنّهم كانوا إما قليلي الاطّلاع على المراحل الماضية، أو غير مهتمين بها من الأصل. أضف، إنّهم كانوا انتقائيّين ومنغلقين على مراحل معينة في التاريخ العربي، وهو أمر سأسعى إلى تفسيره.

هذا ما يجعل دراسة تلك المراحل في ما يتعلق بالعرب، أمراً صعباً، يشبه وضع النجّار الذي عليه أن يصنع طاولة لكنّه لا يملك المادة الخام من الخشب، لذا تراه يقطع قطعاً صغيرة من هنا ومن هناك، لعله يتمكن في النهاية من صنع الطاولة. لكن يظل مسعانا في نهاية الأمر هو البحث عن الحقيقة، لأنّ الدقّة واجب علمي لا تفضُّل من المؤرخ كما كان يقول الأستاذ إدوارد كار، الذي وضع مؤلفات مهمّة لعل أهمّها كتاب «ما هو التاريخ؟» الذي طرح فيه أفكاره عن الحقيقة التاريخية، وحدود الموضوعية في دراسة التاريخ.

كان هناك سببان أساسيّان وراء الشروع في هذا البحث. السبب الأول هو غياب المعرفة التاريخية عن العرب في مراحل ما قبل الإسلام الى درجة أنّ كلمة عربي كادت تعادل كلمة بدوي. وهذه مغالطة، لأنّه ليس كلّ العرب بدواً، هذا من ناحية تقرير حقيقة تاريخية، أما من حيث البعد الإنساني، فكلّ البشر متساوون في القيمة الإنسانية.

لقد استُخدم تعبير الجاهلية، كما أظن، لوصف مرحلة ما قبل الإسلام من منظور ديني، ومن أجل وضع حدود ما بين مرحلتين، لكن عُمّم هذا المفهوم ليشمل التاريخ العربي كلّه، ويصبح بعد ذلك وصفاً تعميمياً يحتمل الكثير من المضامين السلبية للذات الحضارية العربية، الأمر الذي بات يعني أنّ العرب لم يكونوا شيئاً قبل الإسلام.

هكذا جرى تجاهل التاريخ العربي لمرحلة ما قبل الإسلام، ما أسهم في تغييب المراحل السابقة، لأنّ التاريخ العربي تاريخ ممتد. أدّى الإسلام بلا شك دوراً أساسياً ومهمّاً في وضع العرب

على مسرح التاريخ العالمي، لكن هذا لا يعني أيضا أنّ العرب كانوا هامشيّين تماماً كما يجري تصويرهم أحياناً، سواء على مستوى الدراسات التاريخية أو الأكاديمية، أو على مستوى الأقنية الأخرى التي تنتج الفكر والمعرفة مثل البرامج الوثائقية والمسلسلات التاريخية، التي غالباً ما تهتم بمراحل معيّنة من تاريخنا.

نظرة عامة إلى حركة التفاعل الحضاري والحركات الفكرية التي كان تموج بها الجزيرة العربية وبلاد الشام، تناقض بلا أدنى شك نظرية «لا شأن للعرب بالحضارة ما قبل الإسلام»، التي لا تزال سائدة حتى الآن الى الدرجة التي نسمعها حتى من بعض العرب.

كانت هناك تيارات توحيدية حنيفية الى جانب وجود عربي مسيحي مكوّن من حوالي 46 قبيلة، والغساسنة العرب الذين كانوا يتمتعون بالحكم الذاتي، كذلك كان لدينا المناذرة ووجود عربي يهودي في المدينة، وحركات تمرد إجتماعي على الثقافة القبلية، كما في حركة الصعاليك. وانتشرت أشعار الحكمة والتأمل كما في خطب قيس بن ساعدة، الذي تشبه خطبه الى حد ما خطب يوحنا المعمدان، المبشّر بالمسيح. وكانت لدينا أشعار زهير بن أبي سلمى، التي تتناول مسائل وجودية. وشهد سوق عكاظ المنابر الثقافية ونشاطات ثقافية متعددة من الشعر والغناء والتفاعل الثقافي وحتى ثقافة المباهلات أو المناظرات الفكرية والدينية. كلّ هذه شواهد تؤكّد حيويةً وحراكاً ثقافيَّين.

ولعل الاكتشافات الحديثة في المملكة العربية السعودية عن وجود آثار مصرية قديمة في الجزيرة العربية، تعطي براهين

إضافية علاوة على ما نملك من وثائق على علاقة العرب بالقوى الإقليمية مثل بلاد فارس والإمبراطورية الرومانية وقوافل التجارة باتجاه اليمن والشام. يعني ذلك وجود روابط تجارية وتبادل أنماط ثقافية ومعرفية، وكلّ ذلك يقوّض نظرية "لا شأن للعرب بالحضارة ما قبل الإسلام".

على كلّ حال، قد يكون من الممكن تفهّم أنّ المؤرخين في تلك المراحل كانوا يقدمون الديني على التاريخي أو على الإثني، وهو أمر حصل في حضارات أخرى، وخاصةً أنّنا نتحدث عن مرحلة ما قبل تبلور الفكر القومي الذي ولد على أنقاض حرب المئة سنة التي أنتجت اتفاقية ويستفاليا عام 1648. وهي الاتفاقية التي وضعت حداً للحروب الدينية، وأسست لنظرية الدولة القومية الحديثة. لذا بات من غير الممكن عدم قراءة التاريخ العربي إلّا عبر مراجعة شاملة لكل الفترات، وخاصةً في هذه المرحلة التي تتعرّض فيها الذات الحضارية العربية لاتهامات قاسية وظالمة.

العامل الآخر الذي أسهم، في تقديري، في تجاهل التاريخ العربي هو فقدان العرب القيادة بعد الدولة العباسية، إذا لم نقل منذ منتصفها، وقيادة قادة ليسوا عرباً المنطقة العربية لحوالي ألف عام. حصل ذلك من خلال الشرعية الدينية ذاتها التي أعطت الحق للعرب في حكم المسلمين من غير العرب، والتي منحت المسلمين من غير العرب الحق في قيادة المنطقة العربية. ومن الطبيعي في هذه الحالة، أن يتركّز الاهتمام على الديني لا على التاريخي والإثني، لأنّ ذلك كان من الأمور التي لا يفكر

فيها أحد أولاً، وثانياً، لأنّه من غير المتوقع أن يعنى حكام ليسوا عرباً بالتاريخ العربي ما قبل الإسلام.

السبب الذي دفعني إلى التفكير في هذا البحث، هو الهجمة الشرسة التي استهدفت وتستهدف الذات الحضارية العربية، والإسلام، أحد أهم أُسسها. وأستخدم تعبير «الهجمة الشرسة»، لأصف فقط التحريض والتشويه الإعلامي الغربي السلبي عن العرب في السنوات العشر الأخيرة. ذلك أنّ العرب اتُّهموا بالتعصب والانغلاق، وإلى ما هنالك من صفات سلبية، مثل غياب ثقافة التسامح في المجتمعات العربية... إلخ، لكنّني أعتقد أنّ النظرة السلبية عن العرب والشرق عموماً هي أقدم بكثير من أحداث 11 أيلول 2001 في أميركا، بل أستطيع التأكيد، كما سأبيّن لاحقاً، أنّها أقدم من الإسلام أيضاً. وقد منحت أحداث أيلول 2001 فرصة ذهبية للجهات التي تحمل فكراً عنصرياً تجاه العرب، من القوى والتيارات اليمينية والدينية المنغلقة. وهي قوى كانت على الدوام معادية لمنطقتنا، وهي ذاتها التي أفرزت فكر المحافظين الجدد وحزب الشاي والمسيحية الصهيونية التي دعمت غزو العراق وأفغانستان، ودعمت بلا حدود المشروع الصهيوني.

ويذكر الجميع أنّ الصور الكاريكاتيرية للعرب في الأفلام الأميركية التي كانت تصوّرهم إما أغنياء بلهاء أو إرهابيين كانت موجودة قبل تلك الأحداث، لكنّ الجديد أنّ تلك الحملات التي تزعّمها من يسمونّهم "خبراء" في العالم الإسلامي ومراكز أبحاث مشكوك في صدقيتها وموضوعيتها بل وأهدافها، أوصلت الموضوع الى الطبقات الشعبية التي لم تكن تهتم بهذا الأمر من

قبل، واستخدم هؤلاء "الخبراء" نظرية التخويف من الإرهاب، مستفيدين من الثورة الإعلامية الحديثة التي باتت قادرة على نقل الخبر بعد وقوعه بأقل من دقيقة.

لقد كان القرن التاسع عشر حقاً قرن التاريخ في أوروبا، إذ صيغت فيه المرجعية الأوروبية المستندة الى المرحلة اليونانية والمسيحية والثورة الصناعية، وجرت فيه بلورة مفاهيم أساسية تتعلق بفلسفة التاريخ وماهيّته وأهدافه، ومسألة تفسير النصوص القديمة وقضية الموضوعية في دراسة التاريخ. ففي رواية تشارلز ديكينز «أوقات صعبة»، يعكس السيد غرانغريند روح القرن التاسع عشر عندما يقول إنّ «المطلوب الآن هو الحقيقة، والحقيقة وحدها». وهذه الأخيرة كانت على الدوام مشكلة، بسبب الأيديولوجيا أو القراءة الأحادية أو الإنتقائية التي كانت أحد العوائق الكبرى في دراسة التاريخ.

وهذا السبب كان، في تقديري، عاملاً أساسياً في تغييب شخصية فيليب العربي (philippus Arabus)عن دوره المهمّ في إيقاف اضطهاد المسيحية ثم الاعتراف بها كديانة مع سائر أديان الإمبراطورية الرومانية، وهذا باعتقادي إنجاز مهم لإمبراطور لم يحكم سوى 5 أعوام، من عام 244 حتى عام 249، ميلادي. خمسة أعوام، نجح خلالها في إحداث نقلة حضارية مهمّة على مستوى الإمبراطورية الرومانية. ولولا جوّ التسامح الديني الذي أوجده فيليب، لما كان ممكناً أصلاً للإمبراطور قسطنطين أن يتبنّى المسيحية، التي كانت قد حصلت على اعتراف بشرعيتها من الإمبراطور ذي الأصل العربي.

وأهم مصدر تاريخي جاء على ذكر دور الإمبراطور فيليب، كان من المؤرخ الفلسطيني يوزابيوس القيصري (Pamphili Eusebius) الذي توفي عام 339 ميلادي، وذكر أنّ فيليب كان أول إمبراطور روماني يعتنق المسيحية. وهذا أمر غير مؤكد، وإن كان مؤكداً أنّه الإمبراطور الأول الذي اعترف بالمسيحية وأوقف اضطهاد أتباعها. لقد أكّد تروتسكي أنّ على دارس التاريخ أن يسعى إلى فهم كيفية تطور الأفكار، لأنّ كلّ فكرة، في نهاية المطاف، تتطور وتتغير عبر سياق تاريخي معيّن، وما على الدارس سوى السعي إلى فهم السياق التاريخي لتطوّر الفكرة، لكن لو وجّه أحدهم إلى أيّ طالب في أوروبا أو العالم العربي سؤالاً عن الرجل الذي منح المسيحية الشرعية في الوقت الذي سمح فيه أيضا لأتباع الديانات الأخرى بحرية العبادة، فإنّي أشك أنّ واحداً فقط يعرف أنّ فيليب العربي المولود في مدينة الشهباء السورية من أسرة تعود جذورها إلى الجزيرة العربية هو الذي كان وراء هذا العمل الحضاري العظيم.

السؤال الذي يمكن المرء أن يسأله هو: لماذا غُيّب دور الإمبراطور فيليب عن التاريخ؟ هل حصل هذا بقصد أم بغير قصد؟ لا يمكن أيّ مؤرخ في العالم أن يتوقف عن طرح مثل هذه الأسئلة، لأنّها تتعلق بمفاصل مهمّة في التاريخ وليست أحداثاً عابرة. من الكتابات الحديثة والقليلة عن هذا الموضوع، كتاب ياسمين زهران، بعنوان «فيليب العربي، دراسة في التحيّز»، وقد سعت الكاتبة فيه إلى نقد الإجحاف الذي تعرّض له فيليب من جانب المؤرخين الغربيين.

لذا فإنّ أول ما يعترضنا في هذا الأمر هو غياب القراءة الموضوعية في الغرب والسبب، في رأيي، يعود الى تراث غربي يملك نظرة سلبية عن الشرق، وخاصةً ذلك الشرق الذي تصارَع مع الغرب لفترات طويلة.

لهذا فإنّني أعتقد أنّه بسبب النظرة العنصرية تجاه العرب ودورهم جرت تغطية تلك المرحلة، عن قصد، أي إنّ الإضاءة الغربية عليها كانت أقرب إلى الإنتقائية منها إلى الجدية العلمية التي يُفترض أنّها تعمل بأيديولوجية أقل وبعلمية أكثر. وهذا أمر لا يبدو أنّه كان المبدأ الذي تحكّم في قراءة تلك المرحلة.

ويمكننا معرفة النظرة الرومانية العنصرية من خلال هذا النص الذي يعود إلى القرن الأول قبل الميلاد، وهو عبارة عن رسالة وجّهها يوليوس قيصر عن موضوع نقاط التفتيش إلى مجلس شيوخ روما. وتذكّرنا هذه الرسالة بالمعاملة التي يلقاها العرب في المطارات الغربية والنظرة إليهم كإرهابيّين محتملين. يقول قيصر: "لقد سمعت أنّ هناك اعتراضات متزايدة، في مجلس الشيوخ، على نظام تفتيش المسافرين القادمين إلى أراضينا من المناطق البربرية على طول محيطنا التوسعي، جنوب شبه الجزيرة العربية وبلاد ما بين النهرين خاصة".

تؤكد هذه الوثيقة التي عمرها ألفي عام، ما حصل إثر أحداث أيلول 2001 في أميركا من الشك والريبة بالعرب. يصف يوليوس هؤلاء بالبرابرة، وهي أوصاف ونعوت سمعنا ما يشابهها في مرحلة الأعوام الماضية التي شهدت ضخاً إعلامياً غير مسبوق استهدف الذات الحضارية العربية.

إنّ ظهور شخصيات مهمّة، غير رومانية الأصل، مثل فيليب العربي تمكّنت من الوصول الى المركز الأول في الإمبراطورية الرومانية، بل وأن تقوم بنقلة حضارية مهمّة، لا يمكن إلا أن يعبّر عن مستوى متطوّر في المجتمع العربي؛ مجتمع أنتج شخصيات مهمّة بمثل هذا المستوى والتأثير، وهو أمر لا بد من دراسته بعمق لأجل فهم أفضل لدور العرب في تلك المرحلة. لذا بات لزاماً علينا أن نسعى إلى البحث عن تاريخنا لأنّ أول بناء في مشروع المقاومة والتنمية هو معرفة الذات. هذا هو المدماك الأول في المشروع الحضاري العربي، الذي يفترض أن يقرأ الحضارة العربية من خلال تاريخها الطويل، وإسهاماتها المهمة في الحضارة الإنسانية.

إشكالية الصور النمطية!

أهمية التطرق الى هذا الموضوع في الوقت الحاضر تعود الى التشظي الحاد والإنفجار الهوياتي الذي تشهده المنطقة العربية. وحين أقرأ تعليقات القراء على بعض المقالات وحتى التعليقات على الفيس بوك أرى حجما هائلا من الهراء، والأحكام المسبقة على المجموعات الدينية الأخرى الى درجة تثير القلق.

وعلى سبيل المثال، يكفي أن تقرأ هذه الأيام تعليقات من مسلمين ينتمون الى الإسلام السني، ومن مسلمين ينتمون للاسلام الشيعي، لكي يصاب المرء بالإحباط، والاسوأ انها صادرة عن الجيل الجديد الذي سيقود مجتمعاتنا. هذه الأحكام المسبقة أو الصور النمطية هي التي تغذب عادة أعمال القتل والعنف ضد الآخر المختلف، وعادة ما تكون بدون معرفة حقيقية بالآخر، سوى بعض الصور النمطيه التي يتم تلقينها.

ومن المهم حسب اعتقادي أن يتحرر الإنسان من سطوة التلقين المرتبط بتنميط الآخرين لان له مضار مدمرة. ودعوتى المخلصة لشباب اليوم هي أن يبحثوا عن الحقيقة خارج نطاق دائرة التلقين والأدلجة والتنميط التي تنتج أفرادا مطيعين وأدوات طيعة في يد الأيديولوجيين، وأكثر من ذلك، قتلة. ولا يمكن في رأيي تكوين عقل مستقل بدون التحرر النسبي على الأقل من الأيديولوجيا وتنويع مصادر المعرفة.

على أية حال، لا بد من توضيح تعبيرين يستخدمان بطريقة متداخلة أحيانا. أولها التصنيف وهو تعبير يصف واقعا لا أكثر،

كأن نقول، هؤلاء صينيون أو روس. لكن التنميط له حكم قيمة ويتعدى الوصف كالقول إن الصينيين عنيفون.

اهتمامي بالسؤال الحضاري في بداية تسعينيات القرن الماضي هو الذي قادني الى محاولة فهم الصور النمطية. كنت حينها أسعى لفهم الاسباب التي تجعل بعض المجموعات الثقافية تنجح في التعايش مع بعضها البعض، فيما تفشل المجموعات الأخرى. وكان لا بد من دراسة منظومة قيم ورؤى كل ثقافة أو مجتمع سواء عن ذاته، أو عن الآخر لفهم أنماط التفكير التي تساعد على التعايش والتي لا تساعد على ذلك.

في تلك الفترة كنت أتابع أحداث إنهيار يوغوسلافيا. كانت تلك البلاد تبهرني، كونها كانت بحق، قبل الإنفجار، أهم جسر حضاري بين الشرق والغرب على الكرة الأرضية. وكان أول تعبير تعلمته عن تلك البلاد ما قالته لى صحافية يوغوسلافية التقيتها في بروكسل العام 1989 إن مؤرخا يوغوسلافيا وصف يوغوسلافيا أنها "بيت في منتصف الطريق!".

وللاسف لعبت الصور النمطية دورا كبيرا في تغذية الكراهية التي قادت بفعل انفجار الحرب الى فضائع رهيبة. وعادة ما تسبق الصور النمطية التي تنتشر بسرعة بفضل وسائل الإعلام اعمال القتل، التي تهيئ عادة المناخ النفسي لنزع الصفة الإنسانية عن الآخر تسهيلا لقتله. وفي المقابل يلعب العنف وسفك الدماء دورا كبيرا في تعزيز الصور النمطية التي تتهم الجميع، كلهم، بانهم كذا وكذا.

استخدمت تعبير (إشكالية) لان التعريف معقد وليس من السهل تقديم تفسير قاطع لظاهرة معقدة عرفتها كل مجتمعات الدنيا قديما وحديثا.

ولذا من الصعوبة تعريفها، لكن من أهم ميزات الصور النمطيه انها تملك طبيعة اختزالية، أي أنها تختزل شعبا كاملا في عادات أو سلوك معين. إنها نوع من "صندقة" فكرية أو "قولبة" فكرية تصور الآخرين وكأنهم كلهم يملكون ذات الصفات السلبية، وهو أمر غير صحيح كما تؤكده الدراسات الإنثروبولوجية والبيولوجية. وحتى لو كان هناك بعض الخصائص المشتركة بقدر ما تبقى مسألة تعميمها على الجميع مسألة لا أساس علميا لها. وهذه الصور يتم توظيفها سياسيا لتشويه الآخرين. وقد قرأت مرة دراسة حول مناهج التعليم الاسرائيلية التي تُدرس الاطفال صورا نمطية سلبية عن العرب.

وعملية تشكل الصور النمطية معقدة تتداخل فيها مجموعة من العوامل مثل التاريخ والإجتماع والاقتصاد والصراعات والخيال، واحيانا كثيرة ما تكون هذه الصور النمطية ثمرة للخيال والاسقاط (Projectionism) خاصة في زمن الأزمات والحروب حيث تنفجر الغرائز وتسود الكراهية ويضعف منطق العقل.

تفكيك الإسلاموفوبيا

أسعى ها هنا، الى فهم وربما تفسير ما أمكن من ظاهرة الإسلاموفوبيا. وهي ظاهرة كثر الحديث عنها في المجال الإعلامي في الفترة التي أعقبت بروز ظاهرة اليمين المتطرف في اوروبا. والتي تم تتويجها بالمجزرة الوحشية التي أقدم عليها أندرس بيرفيك النرويجي في 22 يوليو 2011 لأجل معاقبة حزب العمل! (الذي حول النرويج الى مجتمع متعدد الثقافات).

المشاكل التي تعترض المرء في الدراسة التاريخية والإنثروبولوجية وهي متصلة بطبيعة الحال في ما اسماه محمد اركون بالوصول الى الفكرة الطازجة الاولى التي كونت الظاهرة المعنية بالدراسة. وبالفكرة الطازجة أعني هنا بداية تكون الظاهرة قبل أن تتجه الى التعقيد بسبب عوامل متعددة.

ومنبع هذه الإشكالية اعتبارات عديدة منها تعدد وتشعب اسباب ومصادر تشكلها عبر ظروف تاريخية قد تمتد أو تقصر في الزمن الى أن تصل مرحلة النضج بحيث يمكن وصفها وتعريفها، على رغم أن مسألة تعريفها بدقة ليست دوما بالأمر السهل. وهذا ما جعل مرتا ميشيلين تتساءل في مقالة في صحيفة "الافتن بوسطن" النرويجية بعنوان (ماذا يمكن أن نسميه؟) تشكك اذا ما كان تعبير الإسلاموفوبيا هو التعبير الأدق لوصف هذه الظاهرة لأن هذا التعبير كما هو معروف مستمد من علم النفس وليس من علوم السياسة أو الإنثروبولوجيا.

على أية حال تخلص الكاتبة الى القول إنه بغض النظر عن دقة هذا التعبير من عدمه إلا أنه بات يعبر عن الصور النمطية Stereotyping في الغرب تجاه العرب والمسلمين والتي يغلب عليها الشك والخوف والسلبية.

وعلى كل حال نحن نعرف أن الافكار لا تنمو على الشجر كما يقال. والافكار نتاج بيئة معينة لها خصائصها وظروفها، ولذا يصعب دراسة هذه الافكار والتصورات الثقافية بمعزل عن البيئة المنتجة لهذه الظاهرة، كما تعلمنا من تروتسكي.

ولما كنا نعرف أن الصور الثقافية Cultural images تولد في بيئة تنتج رؤيتها لذاتها ورؤيتها للآخر، ونعرف أيضا أن الصور الثقافية يمكن أن تموت مع الوقت ومن الممكن أيضا أن تستمر وأن تتحول الى صور نمطية يتم تعزيزها من خلال التعليم والإعلام الى ما كل ما يساهم في خلق التصورات العامة.

وعندما اتحدث عن التصورات العامة بهذ الصدد فأنا أعني هنا الافكار العامة التي تسود مجتمعا ما بحيث تصبح معها افكارا مقبولة للجميع.

وهذا لا يعني بطبيعة الحال صحة هذه القوالب الثقافية لكن اهميتها أنها تصبح موضع إجماع وقبول لدى المجموعة الثقافية المعنية.

وعلى سبيل المثال نعرف من خلال علم الإنثروبولوجيا أن المجتمعات تحدد قوالب ثقافية لمفهوم الصديق ومفهوم العدو. وهذه المفاهيم تتغذى عادة من الصراعات والمنازعات بحيث يصعب تغييرها إلا إذا توقف الصراع الذي سمح لمثل هذه الصور النمطية بالتداول كالصراع الإنكليزي الفرنسي الذي

استمر لقرون عديدة والذي بلور صورا نمطية سلبية لدى كليهما عن الآخر، أو الصراع التركي اليوناني الذي بات معه حتى تدخين النارجيلة أمرا غير مقبول في اليونان لارتباطه بالثقافة التركية وبذكريات الاحتلال التركي.

وتعبير (الصورة النمطية) مستمد من اللغة اليونانية والتي تشير الى فكرة أو مجموعة أفكار ثابتة لا تتغير ترتبط عادة بالسلبية حول شعب أو مجموعة ثقافية.

وبهذا المعنى لا تعترف هذه الصورة بحركة التاريخ القائمة على التغيير لان الصور النمطية تكون عادة مختزلة وعامة وهذا ما يؤكد عدم استنادها الى رؤية معرفية حقيقية، وبالتالي لا تتطلب أي جهد عقلي بسبب طبيعتها التي عادة ما تختزل شعبا أو ثقافة ببضع كلمات يسهل انتشارها بين عموم الناس.

وربما يكون والتر ليبمان في كتابه (الرأي العام) 1922 أول من سعى لشرح هذه الظاهرة التي يشير فيها الى أن المجموعات الثقافية غالبا ما تملك قوالب جاهزة لدى مقاربتها للحقيقة.

أهمية كتاب (الرأي العام) أنه طرح بصورة علمية إشكالية الصورة النمطية ومدى تأثيرها في المجتمع عندما تتحول الى ما يسمى في العلوم الإجتماعية باليقينيات.

في الفصل السادس المعنون (الصورة النمطية كحالة دفاع) يشرح ليبمان أهمية الصور النمطية في المجتمع التي تساهم حسب تعبيره في خلق نوع من الوحدة الجمعية. وبالتالي فان أي تشكيك في الصورة النمطية التي باتت من اليقينيات يشكل مسألة يهب الجميع للدفاع عنها بكل قوة. فالمشكلة كما يقول ليبمان إن

الافراد عادة لا يفرقون بين العالم (كما هو) وبين رؤيتهم للعالم (كما يرونه) أو بين ما يمكن تسميته بالحقيقة الموضوعية والحقيقة الذاتية وهذا بطبيعة الحال يخلق إشكالية لدى الافراد بسبب هذا الخلط بين المفهومين.

لكن من وجهة نظري فان أهم عمل نقدي لنقد ظاهرة الصورة النمطية خاصة تجاه المنطقة العربية كان بلا شك كتاب ادوارد سعيد (الاستشراق).

لذلك لا بد من العودة لافكار ادوارد سعيد لأجل فهم هذه الظاهرة. لقد كتب سعيد كتابه قبل أن يصبح مفهوم الإسلاموفوبيا متداولا كما هو الآن وذلك عبر تحليله العميق لآليات اشتغال وتطبيقات الفكر الاستشراقي.

قام ادوارد سعيد بتفكيك طبيعة عقلية الاستشراق في كتابه المسمى بهذا الاسم العام 1978. عرف سعيد الاستشراق بانه مجموعة من الافكار والتصورات الافتراضية حول الشرق الاوسط. واعتبر أن أهم ما يميز هذا الفكر أنه ينظر نظرة استعلاء على مجموع الثقافة العربية الإسلامية الأمر الذي مهد في رأيه للاحتلال الأوروبي لمنطقة الشرق الأدنى في مراحل لاحقة.

أهمية الاشارة لسعيد في هذا الصدد أنه قام بتفكيك الصور الذهية الغربية تجاه المجتمعات العربية المسلمة. هذه الصور هي التي تغذي الآن الإسلاموفوبيا باعتبار أن الاستشراق الذي شكل في السابق قوالب ذهنية سلبية حول العرب والمسلمين هو الأب الشرعي للاسلاموفوبيا بل وأكاد أجزم أنه يحمل ذات جينات الـ DNA لذات التصورات الثقافية التي من أهم

خصائصها ثقافة الشك والاستعلاء والكراهية لعموم العرب والمسلمين.

أما في أوروبا حيث تنتشر ظاهرة الإسلاموفوبيا فان بريطانيا أول دولة شكلت لجنة باشراف البروفيسور Gordon Conway لأجل دراسة هذه الظاهرة وتعريفها وصدرت في وثيقة أسميت (الاسلاموفوبيا، التحدي لنا جميعا).

ومن المؤكد أنه ما كان من الممكن تشكيل لجنة خاصة لدراسة هذه الظاهرة لولا أن حجمها قد بدأ يتسع ممهدا الطريق لبروز احزاب يمينية متطرفة مثل الحزب الوطني البريطاني الذي يجاهربعدائه للاجانب المقيمين في بريطانيا تحت ذريعة الدفاع عن الثقافه الإنكليزية.

تحدد وثيقة (الاسلاموفوبيا، التحدي لنا جميعا) سبع صور نمطية أساسية حول الإسلام أهمها أن الإسلام دين لا عقلاني ومتصادم بالضرورة مع القيم الغربية ولا يؤثر في الحضارات الأخرى ولا يتأثر بها، لأنه دين جامد غير قابل للتكيف أو التغير، والمتصور عنه في الغرب أنه أيديولوجية سياسية أكثر منه دين.. الخ من الصور التي تربط ما بين الإسلام والتخلف والإرهاب.

وكنت قد أشرت في مقال باللغة النرويجة نشر في موقع جامعة أوسلو بعنوان (الرد النرويجي والتحديات اللاحقة) الى ضعف أو قلة الدراسات الأكاديمية في مجال دراسة ظاهرة اليمين المتطرف. لم أكن الوحيد بطبيعة الحال الذي قال ذلك إذ قرأت هذا الرأي من طرف آخرين. وهذه الآراء التي اتفق معها جزئيا ركزت على أن المبالغة أو التركيز على دراسة الإسلام

السياسي، خاصة النوع المتطرف، ربما أضعف من الإهتمام الأكاديمي بظاهرة اليمين المتطرف. ولكن على الرغم من وجاهة هذه الآراء لكني لست مقتنعا أنه التفسير الوحيد لظاهرة باتت واضحة كل الوضوح في أوروبا الى الدرجة التي تم تشكيل لجنة من طرف الإتحاد الأوروبي لدراستها، وهذا بحد ذاته اعتراف بخطورة هذه الظاهرة. لكن لدي تساؤلات حقيقية اذا ما كان الايغو الأوروبي Egocentrism يقبل بسهولة الاعتراف أن مجتمعه الديمقراطي الذي انتهى معه التاريخ حسب فوكوياما يمكن أن ينتج ثقافة الكراهية التي عادة ما كان يتم ربطها بالشعوب المتخلفة والبربرية والمتوحشة وهي اصطلاحات استخدمت من طرف الإنثروبولوجيا الاوروبية خاصة في المراحل السابقة.

فمنذ ثمانينيات القرن الماضي بدأت ظاهرة اليمين المتطرف تظهر في أوروبا مع بداية ما كان يقال في وسائل الإعلام حول استبدال مقولة الخطر السوفياتي بالخطر الإسلامي بحيث باتت لا تخلو دولة اوروبية واحدة من وجود حزب يعتبر المسلمين خاصة، والأجانب عامة، خطرا محتملا أو مقبلا على البلاد!

وعلى الرغم من استخدامي الحذر لتعابير مثال (استبدال العدو بعدو آخر) كونها تحتاج الى فحص وتدقيق لكن لا يوجد شك أن تلك المرحلة، أي مرحلة الثمانينيات، قد شهدت أحداثا كبرى أدت الى اختفاء أحد القطبين العالميين وزواله الأمر الذي أدى الى اختفاء الصراع الأيديولوجي ما بين الفكر الرأسمالي والفكر الماركسي كما كان سائدا في أوروبا الشرقية. كما شهدت

تلك المرحلة نشاطا كبيرا كان الإسلام فيها هدفا رئيسا للدراسات الأكاديمية ولوسائل الإعلام بحيث أننا ما كنا نتتهي من ضجة إعلامية حول الإسلام حتى ندخل بأخرى. والأمثلة متتعددة من موضوع سلمان رشدي الى موضوع الكاريكاتير الى مسألة الحجاب.. الخ.

وبالفعل بدأنا نرى انتشارا متزايدا لمصطلح الإسلاموفوبيا الذي بدأ يظهر بقوة خاصة في الحرب الأمريكية - العراقية الأولى. وبدأنا نلمس تركيزا غير اعتيادي على طرح الإسلام والمسلمين كإشكالية انتقل تداولها من النخب الأكاديمية والإعلامية الى مختلف شرائح المجتمع.

ولا شك أن ذلك ترافق مع ما بات يعرف بالعولمة التي فتحت آفاقا غير مسبوقة لتدفق المعلومات بحيث بات بوسع المواطن العادي ليس فقط ما يجري في العالم بل أيضا أن يكون له رأيا فيما يدور في العالم.

أشرت، حتى الآن، الى أن الجذور الأولى المكونة لـ"الاسلاموفوبيا"، تكمن في مدارس الاستشراق التي قامت بعملية تصنيع وتعليب ثقافي للشرق، الذي تم تصوره على أنه مجتمع قاس خال من الرحمة، ومجتمع يضج بالحريم اللواتي همهن الترفيه عن رجال البلاط في شرق مهووس بالجنس. أما إذا ما انتقلنا الى العصور الحديثة، فاننا سنلاحظ أن هذه الظاهرة، كما يقول الباحث البريطاني روني ميد ترست، مرتبطة بمشاعر الكراهية والرفض للمسلمين في أوروبا والخوف منهم.

وقد اعترف المركز الأوروبي لمراقبة العنصرية أن "الاسلاموفوبيا" تصاعدت في أوروبا خاصة بعد هجمات أيلول الإرهابية على برجي التجارة في نيويورك.

وهذه المشاعر السلبية يتم تغذيتها من الإعلام الذي كان يقتنص فرص أعمال إرهابية يقوم بها إسلاميون متطرفون مثل قتل المخرج الهولندي حفيد الفنان الشهير فان غوخ، وقطع رأس جندي بريطاني في قلب لندن، وإطلاق النار من قبل الرائد والطبيب نضال حسن الأمريكي من أصل فلسطيني، على زملائه الجنود وقتله لبعضهم، أضف الى أن أخبار عنف الجماعات الإسلامية في الشرق الاوسط، كانت سببا أساسيا في تغيير الرأي العام الغربي وتعميم هذه الظاهرة السلبية على كل المسلمين.

لقد بدأت بالاشارة الى صراع الغرب والاسلام أول مرة في العام 1990، الذي شهد تحولات كبرى في العالم أدت الى انهيار الكتلة الشيوعية، وبداية الحديث عن إحتمالية الصراع بين العالم الغربي والعالم الإسلامي الذي بدأ الحديث عنه كعدو المستقبل. وفي هذه المناخات، في العام 1993، ظهرت مقالة صموئيل هنغتون في مجلة "فورين أفيرز" الأمريكية التي قدم فيها فرضيته، أو رؤياه لمستقبل الصراعات في العالم، حيث قال انه يعتقد أن صراعات المستقبل لن تكون أيديولوجية، كما كان الأمر في السابق بين الرأسمالية والاشتراكية بل ثقافية. وبالتالي فان خطوط التماس في المستقبل ستكون بين الثقافات. وبعدما قسم العالم الى سبع ثقافات رئيسية اعتبر أن الإسلام سيكون مقاوما للحضارة الغربية.

وفي العام 1990 شهد العالم الحرب المعروفة بحرب تحرير الكويت، التي حصلت عقب احتلال النظام العراقي للكويت. وعلى رغم أن الأذى الذي حصل، كان عمليا أذى من عربي لعربي آخر، إلا أن الحملة الاعلامية الغربية صورت الصراع وكأنه بين الغرب والاسلام. حتى أن أرنانس وهو فيلسوف نرويجي توفي منذ بضعة أعوام، وصف صدام حسين بالديكتاتور المسلم، وهو تعبير إن دل على شيء فإنه يدل على طبيعة المناخ الذي بدأ يتكون في الغرب. ويمكن أن نفهم ذلك بشكل أفضل إن قارناه على سبيل المثال بمناخ البروبوغاندا الصهيونية الإمبريالية، التي شُنت ضد عبد الناصر في خمسينيات وستينيات القرن الماضي، والتي كانت تصفه بـ"ديكتاتور مصر" و"هتلر العرب" بدون الإشارة الى الدين.

على كل حال، دعنا إذن نحاول فهم طبيعة المناخات السياسية والاعلامية التي ساهمت بتكوين هذه الظاهرة. وهذا يعني معرفة الأسباب التي لعبت دورا في تشكيل هذه الظاهرة. وهي في نظري ثلاثة أسباب أساسية. وسأسعى الى الاختصار ما أمكن لكي لا أثقل على القارئ.

العامل الاول، هو ازدياد هجرة المسلمين الى أوروبا حتى وصلت أعدادهم الى الملايين في بعض البلدان، الأمر الذي أدى الى بداية إرتفاع أصوات خاصة من اليمين الأوروبي تحذر من أسلمة أوروبا. وتعتبر أن انتشار الغيتوات المسلمة دليل على عدم قدرة المسلمين على التكيف والإنخراط في الثقافة الأوروبية، سواء عبر انجابهم أطفالا كثيرين، وعنف الرجال تجاه زوجاتهم، وإعتماد الكثيرين منهم على صناديق الشؤون

الإجتماعية.. الخ من الكلام السلبي الذي كان يكتب تقريبا بشكل شبه يومي خاصة في صحف الإثارة.

العامل الثاني، وهو عامل التطرف الديني والعنف الأعمى، وهذا العامل يشكل بإعتقادي العامل الأساسي في تكوين "الاسلاموفوبيا". وأستطيع ان أقول بكل ثقة أنه لو لم تحصل أعمال عنف وإرهاب من قبل الإسلاميين المتطرفين، ما كان من الممكن للاسلاموفوبيا أن تنتشر كما هي الآن. وأيا كانت قدرة الصحافة الصفراء المؤيدة للصهاينة في تشويه المسلمين، فإنها بدون الأعمال الإرهابية، ما كان لها أن تنجح في رسم صورة سلبية، الأمر الذي يصح معه القول أن لا أحد شوه الإسلام أكثر من التطرف الإسلامي، كما لا أحد ساعد في تبيض الصورة السوداء للصهاينة أكثر من التطرف الإسلامي.

العامل الثالث، الصراع مع اسرائيل. في هذه الفترة أيضا حصل ضعف في منظمة التحرير الفلسطينية بسبب خروجها من لبنان في العام 1982، وتوزعها على المنافي البعيدة، وكذلك وقوف بعض قياداتها الى جانب صدام حسين أثناء احتلاله للكويت الأمر الذي زاد من ضعفها. وفي هذه الأثناء برزت حركة "حماس" ذات التوجه الإسلامي التي تأسست في العام 1987 في قطاع غزة. والمعروف أنه قبل هذا التاريخ كانت منظمات المقاومة الفلسطينية تناضل في إطار ثقافة حركة التحرر الوطني ذات التوجه العلماني. وقد بدأت إسرائيل توظف هذا المناخ الديني المتصاعد وبدأت تصور ذاتها وكأنها هي (ايضا!) ضحية (الإرهاب الإسلامي!). وراحت تسوقه لأجل التغطية على طبيعة الصراع الموجه ضد الاحتلال، وكأنه

صراع ديني يريد فيه المسلمون تدمير (الدولة اليهودية التي تحمل مشاعل الحضارة الغربية في الشرق!).

خلاصة..

إن تغيير الصور ذات الطابع النمطي مسألة ليست سهلة، لأن هذه الصور النمطية تتكون عبر الوقت ولا يمكن أن تختفي بسرعة، حتى وإن إختفت مسبباتها. وعلى سبيل المثال، عملت اليابان كثيرا من خلال إرسال فرق موسيقية.. الخ الى أمريكا لأجل تحسين صورتها القاسية التي تم تكوينها خلال الحرب العالمية الثانية.

لكن أعتقد أن على النخب العربية ذات التوجه العلماني التي تعيش في الغرب أن تلعب دورا أكبر من الآن، من أجل إظهار صورة أخرى عن العرب والمسلمين تختلف عن الصور النمطية السلبية. كما أعتقد أن على النخب الفلسطينية في الغرب أن تخفف قدر الإمكان من الإنجرار لصراعات المنطقة الحالية، مركزة على الطبيعة الحقيقية للصراع مع الاحتلال الصهيوني، الذي هو كفاح من أجل الحرية والعدالة، بدأ منذ قرن كامل على خلفية مقاومة الشعب الفلسطيني للظلم والاحتلال وتهويد وطنه.

هل عادت المسألة الشرقية
الى السياسة الغربية

التصريحات الأوروبية التي تطالب بتدخل اوروبي لحماية المسيحيين في الشرق، وتلك التي تربط المعونات الأوروبية بموضوع حماية مسيحيي الشرق، تعيد إلى الأذهان مرحلة ما بات يعرف بالمسالة الشرقية التي برزت في القرن التاسع عشر واستمرت حتى الحرب العالمية الأولى حسب التحقيب التاريخي على الأقل.

ولذا فأني أسعى هنا لأبرهن أن المسألة الشرقية لم تعد الآن لأنها لم تغب تماما عن السياسة الأوروبية. والسبب في رأيي يعود أساسا إلى تعامل الغرب مع المنطقة العربية كموازييك أقلوي وطائفي.

على المستوى التاريخي تعني المسألة الشرقية التدخل الاوروبي المنهجي في الدولة العثمانية التي تم اعتبارها "رجل أوروبا المريض". واستتباعا بدأت الدول الأوروبية القوية كبروسيا والنمسا وانجلترا وفرنسا تنظر إلى نفسها كوريث "للرجل المريض" الأمر الذي سوغ لتلك الدول بالتدخل في كافة مناحي الحياة في الدولة العثمانية التي باتت عاجزة تماما عن إيقافها.

في تلك الفترة وصلت أوروبا إلى ذروة المد الاستعماري في كافة أنحاء العالم في ظل مناخ فكري أوروبي بات ينظر الى

الحضارة الأوروبية على أنها الحضارة الكونية التي ينبغي أن تُفرض على العالم كله وحتى كارل ماركس نفسه لم يتورع عن دعم فكرة احتلال بريطانية للهند من منظور تلك المناخات التي تمت في إثنائها صياغة الغرب كما يريده الأوربيون على حد قول ادوارد سعيد.

وقد أشار لهذا الأمر المؤرخ الإنكليزي ارنولد تونبي بقوله أن المسألة الشرقية سارت على ثلاثة افتراضات ليست صحيحة وهي أوروبا مقابل أسيا، إسلام مقابل مسيحية، وحضارة مقابل تخلف. وهو طرح تم تكراره بصورة أو بأخرى عبر برنارد لويس في مسألة صراع الأديان ثم مع صموئيل هننغتن في مسألة صراع الحضارات.

وخطورة المسألة الشرقية إنها لم تقتصر على التدخل في شؤون الدولة العثمانية بل تجاوزت الأمر إلى صياغة هويات طائفية جديدة للمنطقة تنسجم تماما مع توجه تلك الدول.

من هذا المنطلق انطلقت فكرة حماية ما يعرف بالأقليات الدينية في جبل لبنان فأعلنت روسيا إنها حامية للروم الارثوذوكس وفرنسا حامية للموارنة والنمسا للكاثوليك وبريطانيا للدروز، وذلك فضلا عن سايكس بيكو التي قسمت المشرق العربي إلى خمسة كيانات سياسية إضافة لمحاولات فرنسة لتقسيم سوريا المقسمة أصلا عبر خلق دول طائفية ومن ثم زرع الكيان الصهيوني في فلسطين أو سورية الجنوبية.

ولذا فان تداعيات المسألة الشرقية لم تزل مستمرة حتى الآن، وهي انتهت بنتائج مدمرة للمنطقة العربية والكثير من

الأحداث التي حصلت وتحصل وستحصل ليست سوى إفرازات لسياسة المسألة الشرقية.

فالكيان الصهيوني في نهاية المطاف هو أحد ثمار المسألة الشرقية وكذلك ثمرة للفكر الاستشراقي الذي اخترع تاريخا وهميا وضخّم وبالغ من مسألة الموازييك الديني لأجل تفتيت المنطقة وزرع كيان لا علاقة له من قريب أو بعيد بثقافة المنطقة العربية التي بنت حضارتها عبر تراكم عصور ممتدة عبر التاريخ.

ولذا فان قول بن غوريون مؤسس الكيان الصهيوني حول تفتيت سورية والعراق ولبنان إلى كيانات طائفية يستمد من ذات الفكر الاستشراقي الذي كان يقف خلف المسألة الشرقية.

ومن المهم التركيز هنا على حقيقة أن التفتيت والعبث بمنظومة القيم وخلق هويات صغيرة على حساب الهوية الجامعة كانت لها ولم تزل آثار إجتماعية وثقافية واقتصادية مدمرة.

ونحن حين نتحدث عن منظومة القيم العربية فإننا نعني كما أشار المرحوم الجابري بتلك العناصر المكونة للهوية العربية. وهي عناصر متعددة المصادر لكننا في نهاية المطاف، كما يقول الجابري، يمكننا التمييز في كل حضارة على القيم المركزية التي تكون عادة حصيلة تراكمات تاريخية ونتيجة لتجارب وخبرات وتفاعلات حضارية الخ..

ولذا فأني أعتقد أن سياسة المسألة الشرقية لم تغب تماما من الفكر الأوروبي بانتهاء المرحلة التاريخية الماضية والتي نجحت فيها في إيجاد شرق يتناسب مع الإنثروبولوجيا الأوروبية التي نظرت للشرق نظرة رومانسية في البداية، ثم للشرق كرمز

للحريم، أو التخلف، أو الشرق كرمز معادي للغرب، أو للشرق كمجموعات عرقية ودينية متصارعة، أو للشرق كمصدر للإرهاب.

ولدينا في الوقت الحاضر النموذجين العراقي والسوداني وهما يدللان بصوره لا لبس فيها على استمرارية سياسة المسألة الشرقية.

فمنذ الأيام الأولى للاحتلال الأمريكي للعراق بدأنا نسمع لأول مرة عن مصطلحات جديدة مثل المثلث السني. وشاهدنا ضخا إعلاميا غير مسبوق يركز على شيعية الجنوب وسنية الوسط وكردية الشمال حتى وصلنا لمرحلة بات فيها الحديث عن عراق موحد وكأنه ينتمي للماضي.

أما السودان فقد كان مختبرا حقيقيا لتطبيقات الفكر الاستشراقي (المولع بالتركيز على الثقافات الجانبية)**!**، وكذلك إلى الأعمال التبشيرية التي تستمد ثقافتها ليس من تعاليم المسيح الشرقي بل من صياغة غربية لمسيحوية تتناسب مع ما اسماه ادوارد سعيد "صناعة الشرق". أضف إلى تداخلات صهيونية وامبريالية تلتقي كلها على تفتيت الوحدة الترابية والمجتمعية للسودان. وهنا لا يمكن إغفال فشل النخب العربية السودانية التي ساعدت هذه المشاريع من غير أن تدري وذلك عبر فشلها تاريخيا في تقديم نموذج سياسي يعبر عن التعددية العرقية والدينية والقبائلية السودانية لكن مسألة فشل التطبيقات السياسية للفكر القومي العربي يحتاج لنقاش آخر.

ولذا فاني اعتقد إن المسألة الشرقية لم تختف من الفكر الغربي الرسمي وشبه الرسمي بقدر ما إنها اتخذت إشكالا

متعددة، مرة باسم تحقيق الديمقراطية والحرب العالمية على الإرهاب إلى ما هناك من مصطلحات تمت صياغتها من انثروبولوجيا غربية لم تزل أسيرة لفكرة مركزية الحضارة الغربية.

أما الآن فقد بدأ الحديث عن حماية المسيحيين الشرقيين وكان الغرب اللاديني بات حامي حمى المسيحيين الشرقيين. بينما الحقيقة التاريخية تقول أن المسيحيين مكون أساسي من حضارة المنطقة العربية ومسألة وجود بعض المتطرفين في الجانب الإسلامي هو الاستثناء، وهؤلاء كما أكدت الأحداث لا يملكون أي سند ديني إسلامي أو غطاء شعبي وهم مثل كل حركات التطرف في التاريخ ليس لهم أي مستقبل. ولذا فان مسألة النهوض بمجتمعاتنا لأجل الحرية والديمقراطية والمشارك السياسية وحقوق الجميع تظل مسؤولية أهل المنطقة الذين عاشوا لقرون طويلة وهم يستمعون معا لصوت الأذان من المساجد وصوت أقراع الكنائس.

نحو حوار ومصالحة تاريخية
مع الحضارات المجاورة للعرب

قبل حوالي ربع قرن كتبت مقالا في صحيفة الشرق الاوسط حول موضوع ضرورة قيام حوار عربي مع الثقافات المحيطة بالعرب. كان العالم في ذلك الوقت مشغولا بقضية صراع الحضارات التي اعقبت مقالة صموئيل هنغتن في مجلة الفورين افيرز الأمريكية الذي حول مقالته لاحقا الى كتاب يحمل ذات الاسم.

عندما يذكر موضوع "صراع حضارات" أو "حوار الحضارات"، وكلاهما متصل بالاخر، فان أول ما يفكر به المرء هو الحوار المتصل بالحضارتين الغربية والإسلامية. وهذا الاعتقاد لم يأت بالطبع من فراغ. فمن الصعب تجاهل تاريخ ليس بالقصير من الصراعات بلغ اوجه في اعتقادي في ما يعرف بالحروب الصليبية التي غذت رواياتها الخيال الشعبي لدى الطرفين بتصورات كانت في معظمها سلبية.

وعلى الرغم من كل النقد الذي كان يوجه الى مرحلة تنامي الوعي بأهمية حوار الحضارات التي اعقبت تلك الاطروحة، شاركت في بعضها لقناعتي بأهمية الحوار وتبادل الافكار لكي نساهم معا في توسيع المساحات المشتركة للبشر حيث يوجد في ظني الكثير من المشتركات مثل رفض الظلم والتعاون لاجل خير البشرية الخ.

واكثر من ذلك أعتقد أنه يجب أن يكون لفلسطين بما تمثله من حضور تاريخي وروحي عظيم دور هام في هذه الحوارات. اضف اني كنت دوما أعتقد وما زلت أن من واجب الفلسطينيين أن يكون لهم حضور في هذه المنتديات لاجل تذكير العالم بأن الشعب الفلسطيني دفع في هذه الصراعات وما زال ثمنا باهظا من أمنه وحريته واستقراره وتطوره. خاصة أننا نعرف معرفة يقينية مدى الجهود الصهيونية لاجل تصوير كفاح شعب فلسطين لاجل نيل حريته وكأنه جزء من صراع الشرق مع الغرب، وهذا تضليل لا بد ان يتم التصدي له باستمرار. وهذا ما استرعى انتباهي ودعاني للتساؤل: إنه إذا كان العرب حريصون على الحوار مع الغرب، فلماذا لا يوجد حرص مماثل للحوار مع الحضارات القريبة من العرب جغرافيا وتاريخيا وثقافيا؟

دعني هنا اوضح الاسباب التي دفعتني للدعوة الى ضرورة أن يبادر العرب الى هذا الحوار.

أولا، أعتقد بوجدود حساسيات تاريخية ما بين العرب وجيرانهم، وأعتقد بوجود نظرة سلبية حول العرب في هذه الثقافات لأسباب متعددة من الصعب تناولها في مقال واحد.

فعلى سبيل المثال ما زال التيار القومي في إيران ينظر نظرة استعلائية للعرب ويعتبرهم مسوؤلين عن تدمير الحضارة الفارسية. وفي تركيا كانت عقدة 1916 حتى وقت قريب (أي ثورة العرب على الاتراك) تتحكم بالثقافة الشعبية التركية حتى بات تعبير "عرب خيانات" من التعابير التي يعرفها كل تركي.

ومن المهم القول إني لا أظن أن النظرة السلبية حول العرب في هذه الثقافات تشكل التيار المركزي في هذه الثقافات لكن في

الوقت عينه ليس من الصعب أيضا ملاحظة وجود نظرة سلبية حول العرب تتفاوت من ثقافة لاخرى.

وهذه هي خلاصة استنتاجي من خلال قراءات متعددة وأيضا من خلال عشرات الحوارات مع نخب من هذه البلدان والثقافات.

وأشير هنا الى مجموعة الحضارات والدول المختلفة التي أعتقد بضرورة الحوار معها لأجل تصفية الشوائب التي مرت في التاريخ والاستثمار في المستقبل (وأركز على هذه الكلمة). والثقافات التي أعنيها هنا هي الثقافة التركية والكردية والايرانية والافريقية.

ولهذا الأمر اسباب سياسية هامة تتعلق بصراعنا مع الكيان العنصري الصهيوني الذي يعمل علنا لاجل تغذية هذه الحساسيات التاريخية لاجل الاستثمار فيها.

ولا بد هنا من الاشارة الى نظرية بن غوريون "تطويق الطوق" والتي تقول إن على اسرائيل المطوقة من العرب أن تقوم هي بتطويقهم من دول المحيط.

ويمكن لي في هذا الصدد أن أعطي أمثلة على ما تقوم به اسرائيل. على المستوى النظري نشطت اسرائيل في نشر فكرة أن العرب هم أول من استعبد الافارقة السود وهم الذين تعاونوا مع الاوروبيين في ذلك.

أما على المستوى العملي فقد دعمت اسرائيل انفصال جنوبي السودان وتشجيع اثيوبيا على اقامة سدود تحرم مصر من قسم من مياه النيل.

ونشاط اسرائيل في استمالة امازيغ المغرب واكراد العراق معروف ويمكن التحقق منه.

ولكن، اذا كان من غير الممكن تغيير التاريخ فمن الممكن تغيير النظرة للتاريخ، وذلك عبر ما يمكن تسميته بمصالحة تاريخية وحوارات تميز بين ضح ما هو حقيقة وبين ما هو مزيف.

أهمية الحوارات أنها تفتح آفاق تعاون واستثمار في المستقبل بدل استخدام الماضي الذي يثير الحساسيات.

طه حسين ونقد ما قبل الحداثة

لا أعرف كم هناك من يذكر طه حسين الآن بعد مرور أربعة عقود ونيّف على رحيله، خاصة أن معظمنا قد تربى في مرحلة الفكر القومي عبر نموذج حكم الرجل الواحد أو الحزب الواحد. وفي زمن الفكر القومي اليساري وهو على أنواعه اتفق، عن قصد ام عن غير قصد، على تغييب مرحلة ورموز عصر النهضة. ولذا فان الكارثة الاولى التي حلت على العرب حسب ظني هي تلك القطيعة التي حصلت مع فكر مرحلة التنوير. واغلب الظن أنه لو تم البناء على فكر عصر النهضة أو الاستمرار بالعمل التنويري، لربما اتخذ التاريخ العربي مسارا غير المسار الذي اتخذه.

ربما كان طه حسين من آخر التنويريين العرب إن لم يكن آخرهم بالفعل. كان فكره وآراؤه تنتمي لمرحلة القلق الاولى التي عرفتها المنطقة العربية في مرحلة ما يمكن تسميته بالبحث عن الذات.

اكتشف العرب أنهم غابوا ألف عام، تراجعوا فيه عن مسرح التاريخ وفكروا أنه حان الوقت لكي يستعيدوا دورهم وأمجادهم.

لذا تركز النشاط التنويري في البداية على السعي لتحريض العرب على استعادة دورهم الذي تخلوا عنه (البساتنة واليازجي) ولذا لم يكن من المستغرب أن تسيطر فكرة الخلاص من الإتحاد والترقي على فكر التنويريين العرب في تلك المرحلة

التي كان جل الوطن العربي يخضع للسلطة العثمانية ولاحقا لاحتلال الدول الاوروبية (عبد الرحمن الكواكبي. شبلي الشميل. فرح إنطوان.. الخ).

لقد أدركت النخب العربية في تلك المرحلة أن الضعف والتخلف والهزائم ليست الا نتيجة لوضع عام مهلهل لا يمكن علاجه إلا باعادة النظر في مجموع الفكر السائد.

ومن خلال الإشكاليات التي طرحت مثل مسألة التعليم ومسألة المرأة ومسألة العدالة ومسألة الوحدة ومسألة بناء الدولة الحديثة نرى أن جل هذه الإشكاليات كان تصب نحو فكرة التقدم والترقي.

ومن وجهة نظري على الأقل، لعل أهم حدث ساهم في طرح الاسئلة الكبرى في تلك المرحلة هو اكتشاف العرب للعالم الخارجي الذي كانوا معزولين عنه بقرون، وهذا الاحتكاك بحد ذاته (احتلال نابليون لمصر. رحلة الطهطهاوي الى باريس والبعثات المصرية الاولى للدراسة والكلية السورية في بيروت.. الخ).

كل ذلك أثار السؤال الذي طرح بقوة حول الاسباب التي جعلت الاخرين يتقدمون والعرب لم يتقدموا. ولم يكن الاخرون أوروبا فقط، بل كانوا أيضا دولا اسيوية مثل اليابان التي أثار انتصارها على روسيا عام 1905 فرحا عربيا لأنهم رأوا امكانية قوة اسيوية ناهضة على الوقوف أمام قوة اوروبية.

لذا يشكل فكر طه حسين امتدادا واستمرارا لافكار تلك المرحلة التي كانت تنشغل بالسؤال الكبير كيف يتقدم العرب

وكيف يمكن لهم الإنتقال من مرحلة الدولة السلطانية الى مرحلة الدولة الحديثة؟

فلقد شهدت تلك المرحلة مقابسات مهمة على صفحات الاهرام وسواها تناولت مسائل عديدة لها علاقة بالسؤال المركزي كيف يمكن للعرب أن يتقدموا؟ وعلى هذا النحو حصل الإنقسام على خلفية أن هناك من كان يرى التقدم يتم عبر نسخ التجربة الاوروبية، وكان هناك من يرى بالنموذج الإسلامي الحل، وكان هناك من يرى الأخذ بالنموذجين.

كان طه حسين أكثر قربا حسب اعتقادي برؤية نسخ التجربة الاوروبية لاسيما أنه درس في باريس وتأثر بالفكر الغربي خاصة (ديكارت) عبر منهج الشك الذي طبقه في بعض ما كتبه مثل كتاب (في الشعر الجاهلي). كما بدا ذلك واضحا في آرائه في هوية مصر المتوسطية.

وحسب اعتقادي لا توجد هوية كهذه لكنها كانت سعيا منه ان يبحث عن هوية لمصر تلتقي فيها مع اوروبا (وان يخرج فيها من اسيا!) وهذا الأمر يعكس تأثير القومية المصرية التي ولدت في ذات الوقت الذي ولدت فيها القومية العربية على يد مثقفي بلاد الشام الذين عاش جلهم في مصر.

ولعل هذا كان من الأسباب التي جعلت من فكرة القومية المصرية تتماهى وإن تدريجيا مع فكرة القومية العربية بسبب غياب الحدود الثقافية بين الفكرتين.

على كل حال، كان على طه حسين مواجهة الزوبعة التي قامت ضده بسبب شكه بصحه ما وصل من الشعر الجاهلي في الكتاب المذكور. وكان عليه كما حصل مع علي عبد الرازق من

قبله الذي رفض فكرة الدولة في الإسلام في كتابه (الاسلام واصول الحكم) أن يواجه عاصفة من الاعتراضات من مؤسسة الازهر التي اعتبر انه تمرد عليها وهو الذي تخرج منها قبل ذهابه للدراسة في فرنسا!

في كتابه (مستقبل الثقافة في مصر) يناقش طه حسين إشكالية الهوية المصرية التي لا يعتبرها هوية شرقية وهو طرح ينسجم الى حد كبير مع رؤيته لمستقبل مصر. لكنه في الوقت ذاته يركز على اللغة العربية معارضا استخدام اللغة العامية وهي أفكار طرحها البعض. لكن يلاحظ أن طه حسين عاد قليلا نحو جذوره الاولى اي ربما بات أقل ثورية وبات يكتب في التاريخ الإسلامي مثل (على هامش السيرة) و(مرآة الإسلام)...

كان طه حسين يربط التقدم الإجتماعي والسياسي بمدى تقدم العلم والثقافة لذا ليس من المستغرب أن يكون من أوائل الداعين لتأسيس جامعة الملك فؤاد. وفي الزمن الحاضر الاكثر قلقا ربما في التاريخ العربي كله ما زلنا نرى ذلك الإنقسام الحاد بين من يريدون تبني النموذج الإسلامي، وبين من يريدون الاستفادة من الحداثة لتطوير مشروع وطني يشبه ربما أفكار طه حسين بالتمسك بالهوية الوطنية والانفتاح على الثقافات الاخرى، مع فارق واحد هو أن الاصلاحيين الذين كانوا يطرحون أفكارَ تبني النموذج الإسلامي أمثال محمد عبده، كانوا يختلفون كثيرا عما نراه الآن من اسلام سياسي تصادمي وعنفي.

على كل الأحوال، لا شك أن أفكار طه حسين التنويرية سواء لناحية اعتبار التعليم كالهواء والماء أو في سعيه نقد ثقافة ما قبل الحداثة كان يلعب دورا تنويريا مهما في مرحلة قلقة من

تاريخ بلادنا. وكان بحق امتدادا لهذا الجيل العظيم من التنويريين العرب ممن لعبوا دورا كبيرا في ما بات يعرف بالنهضة العربية التي بدأت في القرن التاسع عشر.

ملاحظات انثروبولوجية
حول الشخصية الحضارية العربية

العلوم الإجتماعية الحديثة تسعى عادة لدراسة المجتمعات وآليات التفكير فيها. وربما تكون الإنثروبولوجيا الثقافية من أكثر العلوم المهتمة بهذا الموضوع، بمؤازرة علوم مهمة مثل علم النفس الإجتماعي وسواه. من المهم القول إنه ليس من السهل دراسة خصائص الشخصية الحضارية لأنها لا تتسم بالثبات، بل من أهم سماتها التغير. لكن رغم ذلك يظل هناك بعض الخصائص العامة التي ترتبط الى حد ما بالشخصية الحضارية.

والشخصية الحضارية هي نتيجة وتراكمات عدد من العوامل، مثل المكان وتأثيره، فالمجتمعات الزراعية تختلف عن مجتمعات المناطق المرتفعة في الجبال، كما تختلف عن مجتمعات الصحراء أو مجتمعات المدن.

أضف الى عوامل أخرى مثل تاريخ المجموعة، ودور المؤثرات الخارجية.. الخ. ولذا لا بد من فهم كل هذه العوامل لأجل فهم أفضل للشخصية الحضارية. ولذا، فإن ما أذكره هنا هو وجهة نظر من منظور الإنثروبولوجيا الثقافية. هذا عدا أن المجتمعات العربية ليست كتلة واحدة، بل توجد داخلها تباينات كثيرة، كما توجد قواسم حضارية مشتركة نتجت عن التاريخ المشترك والقيم المشتركة. والصفات السلبية ليست أبدية، بل

خاضعة للتغير إن تغيرت الظروف والمعطيات. لذا فالمسألة ليست حكما أخلاقيا على هذا المجتمعات.

ولعل أبرز ما تتميز به الشخصية العربية حسب ظني هو التقلب. إنها شخصية قادرة على التحول السريع جدا، والتكيف مع الظروف بشكل سريع جدا. وربما يكون ذلك بسبب كثرة الحكام والظلم، واضطرار الناس الى مراعاة كل حاكم وذلك عبر التكيف السريع، وعدم اتخاذ موقف حقيقي لأن الموقف الحقيقي له ثمن والغالبية الساحقة لا تريد دفع الثمن. لهذا السبب راجت خاصة في مراحل الظلم الشديد أمثال ذات طبيعة انهزامية مثل "اللي يتزوج أمي يصبح عمي".. ! و"العين لا تقاوم المخرز"!

لذا من الصعب تصديق تلك الجماهير التي تخرج بالملايين تأييدا للحاكم، وأعتقد انها على الأغلب جماهير منافقة لا تعبر عن رأيها الحقيقي. ونرى موقفها الحقيقي عندما تنهار سلطة الحاكم، فلا يجد حوله سوى أفراد على عدد الأصابع أين منهم مئات الألوف والملايين الذين كانوا معه كذبا وخوفا ومراعاة ونفاقا. وقد رأينا ذلك مع صدام حسين ومع العقيد القذافي.

ولما كان التقلب هو سمة بارزة، فانه يتبع ذلك عدد من أنماط السلوك المرتبطة بها أغلب الأحيان مثل التهرب من المسوؤلية.

انها شخصية تتجنب مواجهة الحقيقة بصدق والاعتراف بالخطأ ودفع الثمن، ولديها ميل للمرواغة لأجل عدم الإعتراف بالمسؤولية، وإلقاء المسؤولية خاصة في الأخطاء على الآخرين، وهذا ما نراه في زمن الكوارث حيث لا أحد يتحمل

المسوؤلية وكل يلقيها على الآخر. وعدم الإعتراف يؤدي غالبا الى كوارث أكبر لأنه لا يتم التعلم من الخطأ طالما أن لا أحد اعترف به.

ولذا تستعيض هذه المجتمعات عن ذلك بموقف غير صادق، بل تغلب عليه المراعاة والمجاملة والنفاق على حساب الرأي الحقيقي. لأن طبيعة الحياة الظالمة لا تمنح إنسان بلادنا الفرصة على التمرن على قول رأيه الحقيقي. بل العكس يتعلم من بداية الحياة كيف (يتشاطر) ويرواغ من أجل الحفاظ على الذات المهددة. الناس بالنسبة اليه ذئاب ويتم تمرينه من الصغر، أن عليه أن يكون قويا لكي لا تأكله الذئاب! ولعل هذا أدى الى ضعف في ثقافة العمل العام، لأنه أنتج في إعتقادي شخصية هشة ومشغولة بسلامة الذات وضعيفة الاعتقاد بقدراتها. وأمثال "من بعد حماري ما طلع حشيش"! وسواها تؤكد وتعكس هذه النزعة.

إنها شخصية لا تطمئن الى الآخرين، بل ولديها نزعة للشك بالآخرين، ولذا تملك استعدادا ضعيفا للعمل الجماعي. وأعتقد أن هذا الأمر كان له تأثير سلبي على الأمور الوطنية المرتبطة بالعمل العام مثل الأحزاب والنقابات.. الخ.

وربما يكون أيضا قد ساهم في إنتاج شخصية غير صبورة الى درجة كبيرة. بل على الأغلب شخصية مستعجلة جدا، تريد الوصول بسرعة، وتظن أن التغيير يحدث وفق رغبتها بدون مراعاة المراحل الطبيعية في التغيير.

وقد لاحظنا ذلك في طبيعة الشعارات التي رفعت في الربيع العربي. وشعار اسقاط الرئيس طرح وكأنه متى حصل سيحل

كل المشاكل، وهو أمر تبين أنه غير صحيح لأنه يتجاهل وجود ظروف موضوعية. فتطور المجتمعات وتقدمها لا يتم عادة بحرق المراحل. بل بالتقدم بثبات خطوة بعد خطوة، وهذا الأمر يتطلب صبرا ووقتا وجهدا أكبر وقد يتطلب جهود أجيال عدة.

هل تتحمل الثقافة العربية مسوؤلية ما في انفجار المجتمعات العربية؟!

أنا هنا أتبنى فرضية تقول إن من أهم اسباب انفجار العالم العربي الآن هو طغيان الثقافة اللفظية التي أسماها البعض بـ"الظاهرة الصوتية" والتي اعتقلت العقل والفكر الراشد وأدت في النهاية الى كوارث نشهدها الآن.

لذا سأسلط الضوء قدر الامكان على الثقافة كونها الاطار العام التي تنمو فيه الافكار وترعرع على انواعها بما فيه الفكر السياسي. وانطلاقا من هذا أزعم أن أهم مشاكل العالم العربي سيادة وغلبة الثقافة اللفظية التي من أهم سماتها الحشو والتركيز على العبارة الفخمة على حساب تطوير الثقافة النقدية والتحليلية. واذا ما القينا نظرة عامة على سياسات التعليم على سبيل المثال، على اعتبار ان التعليم يعكس رؤية المجتمع وقيمه، نرى حسب استنتاج أكثر من دراسة على مناهج التعليم في المنطقة العربية أن التعليم في بلادنا يكرس ثقافة الطاعة العمياء والكسل الذهني الذي يؤدي في النهاية الى إنتاج مجتمع تغلب عليه ثقافة الخوف وعدم المواجهة الأمر الذي يكرس ثقافة التبعية والخنوع والقبول بالتسلط في مجتمع يمجد ثقافة الولاء الأعمى للعائلة أو القبيلة أو الطائفة. ولأن الثقافة تشكل الوعاء العام للمجتمع لا بد أن ذلك انعكس بطبيعة الحال على مضمون التعليم الذي بات نظريا فقط

وغير مرتبط بالواقع وتحدياته ومشاكله واحتياجاته واصبح في مجمله سردا مملا لا يطور عقلا يناقش ويفحص ويتأمل ويستنتج. الأمر الذي أدى بطبيعة الحال الى إنتاج اجيال هشة وضعيفة وخائفة وغير قادرة على المواجهة لانه تم تشكيلها من الصغر على هذه الثقافة. ولعل ذلك قد أدى الى جعل السياسة مرتبطة بكهنة السياسة و"العارفون بالأمر" و"حملة الأسرار" الخ، الأمر الذي جعلها معزولة عن المشاركة العامة وأدت الى تعميق الثقافة التسلطية حتى أني أذكر أنه كان يوجد عمود في صحيفة عربية اسمه "أسرار الالهة". فمن المعروف انه في مجتمعات ما قبل الحداثة يكون الولاء أعمى وانقياد لما يقوله الاب أو شيخ القبيلة والخروج عن هذا الولاء يؤدي الى مشاكل يتعرض لها الفرد المتمرد. وفي التاريخ العربي نعرف حالات تمرد فقد اصحابها حماية القبيلة وهاموا على وجوههم في الصحراء.

ولعل من الممكن الفهم سبب ازدهار الثقافة اللفظية في مجتمعات كهذه حيث لا يحتاج فيه الزعيم الا الى الفاظ فخمة مبهرة ذات طبيعة عاطفية تؤثر على السامعين لتعزيز الولاء ولرص الصفوف! اما مجتمعات الحداثة فالولاء فيها ولاء حر يمارسه الفرد في النادي أو الحزب أو النقابة أو البرلمان انطلاقا من ضميره وحقه في الاختيار بما يراه مناسبا. والخطابة فيها تعتمد أكثر على برامج واقعية تنطلق من الحاجة الفعلية للناس أكثر منها الفاظا براقة تستهدف الإبهار.

ولعل خلو الثقافة العربية من العقل النقدي الذي يحلل ويسعى لتفسير الظواهر السياسية سمح أن العرب ربما يكونوا من أكثر

شعوب الأرض قبولا لنظرية المؤامرة. وهو أمر سهل في مجتمعات لا تسعى أو لا تملك آليات نقدية لفهم الظواهر الإجتماعية أو السياسية وأسهل لها أن تتهم الآخرين بدل البحث الجاد عن مصادر المشكلات الحقيقية. كما بات كلام السياسيين في بلادنا يعتمد أكثر على الوعود والكلام المعسول والأمنيات منه الى معرفة الواقع والامكانات وهو أيضا امتداد للظاهرة اللفظية التي تعمق المسافة بين القول والواقع. ويعزز هذا الأمر خلو المجتمعات العربية من الرقابة على صدقية الوعود سواء من ناحية خلو بلادنا من مؤسسات رقابية أو انعدام الحريات الصحافية التي تلعب عادة دورا مهما في الرقابة.

السؤال الأكثر أهمية الآن هو: ما هي الاسباب التي أدت الى استفحال الثقافة اللفظية في الثقافة العربية؟ وهل يمكن تقديم تفسير معقول لمعرفة مصادرها؟

لا شك انه سؤال صعب ليس من السهل الاجابة عنه الا عبر محاولة ذكر مصدرين هامين لعبا دورا حسب رأيي في تعظيم شأن الثقافة اللفظية.

الاول، فلسفي ويكمن ربما بتأثر العرب تاريخيا بالفلسفة المثالية الاغريقية التي اعتبرت الإنسان جسدا يحمل رأسا ومنفصلا عنه الأمر الذي اعطى الأولوية لإنتاج الرأس من علوم نظرية مثل الخطابة على حساب الجسد المرتبط بالعلوم التطبيقية. أو ربما عبر تفسير ثقافي بسبب ثقافة سوق عكاظ التي كانت تركز على اللفظ من شعر وبلاغة حيث بات هذا الأمر جزءا اساسيا من منظومة الثقافة العربية.

الخلاصة التي أرغب أن اؤكد عليها هي أن طغيان هذه الثقافة أدى الى الفصل بين القول والعمل وأدى الى ترسيخ ثقافة التسلط في الحياة الإجتماعية والسياسية. وأظن انه طالما لا يتم فهم هذه الظواهر والتصدي اليها عبر تعزيز ثقافة الفكر النقدي وتعزيز الولاء الواعي بدل الإنقياد الأعمى فان مجتمعاتنا ستظل تنتج ثقافة التسلط مع كل جيل.

الأعوام التي سبقت
انفجار الشرق الاوسط

فى بداية القرن العشرين كانت تدور في مصر معارك طاحنة بين المعممين (من أصحاب الفكر الديني) والمطربشين (ممن يضعون الطربوش أو الطاقية، أي من دعاة الحداثة). انتهت المعارك واسفرت عن لا غالب ولا مغلوب. لم ينتصر أحد. ظلت جامعة الملك فؤاد معقلا للمطربشين وظل الازهر معقلا للمعممين وما زال السجال قائما حتى الآن بين التيار العلماني والتيار الديني. لكن يبدو أن الحدود بين العالمين في ذلك الزمن لم تكن بتلك الحدة التي عليها اليوم. فقد درس طه حسين في الازهر. بدأ معمما وانتهى بكتابة "في الشعر الجاهلي" أكثر من مطربش!

في هذا الكتاب توقع فيه طه حسين أن "الناس سيخرجون ساخطين علي!". وقد كان يعرف ما الذي حصل مع علي عبد الرازق من قبل عندما رفض فكرة وجود نظام سياسي في الإسلام! قام طه حسين بالشك في عموم الشعر الجاهلي مستخدما المنهج الديكارتي القائم على الشك المنهجي! ولما شب حريق القاهرة عام 1951 كان ذلك رمزا لمرحلة تحترق بكاملها. هزم العسكر في فلسطين بعدما ظنوا أن الأمر ليس سوى حملة تأديبية (لليهود الملاعين). وضاق ذرعهم بما يجري من مساجلات سياسية بين الوفديين والحزب الوطني وقرروا

الخروج من الثكنات. كان ذلك قبل وقت طويل قبل أن يهتف أحد كما يفعل السودانيون هذه الأيام ممن يهتفون ضد عسكر الحكم الإسلامي "أيها الحشرات عودوا الى الثكنات"!

أما في سوريا الاربعينيات والخمسينيات فقد هزمت الدويلات الطائفية المفروضة من فرنسا وحصل نمو مهم في الاقتصاد وسميت سوريا "يابان الشرق الاوسط!". وبدأت الحياة السياسية بين متنافسين، حزب الشعب والكتلة الوطنية، عمّدا بداية لحياة برلمانية قبل أن يأتي البلاء الاعظم من العسكريين من حسني الزعيم إلى اديب الشيشكلي إلى عصر الوحدة الفاشل إلى عصر الحزب القائد! ولم يكتب للحياة البرلمانية أن تنضج ببسب انقضاض العسكريين الذين لم تعد الثكنات تتسع لطموحاتهم واكتشفوا متعة السجاد الاحمر والإقامة في القصر الجمهوري!

في لبنان ظلت جمهورية الطوائف قائمة بلا تغيير جوهري من ايام شارل دباس وأميل ادة وبشارة الخوري. وظل الاستقرار في لبنان هشا ومعرضا لازمات دورية كما حصل عامي 1958 و1975.

أما في العراق فقد حكم الملك فيصل الأول ومن بعده غازي وعبدالاله الوصي على العرش الهاشمي حكما يجمع بين الارستقراطية العشائرية والدينية في ظل أجواء انفتاح نسبية وتحسن في أسعار النفط. وما عدا سكرتير الحزب الشيوعي فهد سلمان فهد وعدد قليل آخر لم يقتل أحد في ظل هذا الحكم الذي اطاح به العسكريون عام 1958 وقاموا بجر جثة نوري السعيد رئيس الوزراء المخضرم في شوارع بغداد (لم يكن رئيسا

للوزراء لحظة وقوع الإنقلاب) مفتتحين لعصر العسكر والعنف والقتل المستمر حتى الآن.

كان الهاشميون يحكمون في الأردن أيضا وكان أول ما فعلوه بعد هدنة حرب عام 1948 هو سحب العملة الفلسطينية من التداول واحتل اليهود القسم الاكبر وضمت الاردن القسم الشرقي بدون استشارة أحد واسمته الضفة الغربية ووضعت مصر حاكما عسكريا على قطاع غزة. وتشرد باقي الشعب الفلسطيني وضاعت فلسطين.

في ذك الزمن كانت الثورة الجزائرية في بدايتها، وفكرة المقاومة الشعبية لم تكن موجودة ضد اسرائيل. وكانت الافكار الماركسية تستهوي عقل الشباب العربي الناقم وكان الفكر القومي العربي بقيادة مصر عبدالناصر يستهوي القسم الاكبر من الشباب الباحث عن بطل منقذ.

فيما بعد حصلت حرب 1956 التي عمقت الشعور بضرورة اتحاد العرب لكنهم لم يفعلوا. ثم جاءت هزيمة 1967 التي ضاعفت من مشاعر المرارة والهزيمة والتشرذم. قال ياسين الحافظ إن الهزيمة سببها غياب الديموقراطية، وقال صادق العظم إن السبب هو ثقافة الاساطير الدينية. فيما بعد دخلت القوات الاسرائيلية بيروت ودخل الجيش الاميركي العراق المرهق من حروبة العبثية مع إيران.

وظل الغرب على ذات السياسة الثابتة: دعم لاسرائيل والأنظمة العميلة ومحاربة أي فكر عربي يوحد العرب.

وظلت الثقافة العربية وحتى الآن "الأمة" الوحيدة الباقية الحامية في ظل التشرذم السياسي. وولدت منظمة التحرير وانشد

محمود درويش قصائد لنضالها وبدأت فلسطين تصحو من سباتها ثم غرق الفلسطينيون بذات الامراض العربية ذات العدوى القاتلة التي أدت لتراجعات واتفاق مجحف مع اسرائيل. تصاعد دور الدول الخليجية التي ازدادت ثروتها بسبب ارتفاع اسعار النفط والتي لم تعد ترضى بدور دفتر الشيكات بلا دور سياسي بل وثقافي.

في تلك الفترة مات معظم مطربي الزمن الماضي من أم كلثوم الى عبدالحليم وبدأ عصر الاغاني الهابطة! وازداد الوضع سوءا في معظم البلاد العربية. زادت نسب البطالة إلى معدلات كبيرة، ولم يحصل أي تحسن على مستوى الحقوق والحريات العامة. وبدأنا نرى زوارق الموت التي تحمل شبانا عرب يموتون في البحار، وهم يحاولون البحث عن أمل لحياة كريمة خارج بلادهم. وفي ظل هذه التراجعات جاءت الثورة الإسلامية في إيران ثم الإسلاميون إلى حكم تركيا وجاء معها المد الإسلامي متأثرا بهذه التطورات وطارحا نفسه كمنقذ من احباطات المراحل السابقة. ثم ظهر مفكرون مثل الجابري واركون وحسن حنفي ممن دعوا وكل على طريقته لتحديث الفكر العربي. لكن افكارهم ظلت مشاريع ثقافية محدودة التداول ومقتصرة على النخب.

ثم جاء عصر الفضائيات وبدأ العرب يعرفون عن بعضهم البعض أكثر من ذي قبل ويكتشفون أن همومهم مشتركة. لكن الأنظمة ظلت على حالها وكأن العالم لم يتغير. تراجع الفكر القومي إلى درجة كبيرة وكاد ينتهي الفكر الشيوعي مع نهاية الكتلة الاشتراكية في تسعينيات القرن الماضي. ووصلت الدولة

العربية القطرية المثقلة بالأزمات المتراكمة إلى مرحلة انسداد أفق على مختلف المستويات فقد معه الشباب كل أمل.

تفجر الوضع العربي برمته ووصلنا الى ما وصلنا اليه الآن من صراعات مجتمعية غير مسبوقة في تاريخنا المعاصر.

حوارات قبل انهيار يوغوسلافيا،
أو الاسئلة الصعبة المتعلقة بالمشرق العربي

كان ذلك في أوائل تسعينيات القرن الماضي. كنا في بروكسل مجموعة من المثقفين اليساريين من كتاب وصحافيين نناقش التغيرات الكبرى التي كانت تحصل يومها. كانت معنا صحافية من يوغوسلافيا. في ذلك الزمن لم نكن نسأل أو نفكر أن نسأل اليوغوسلافي أو اليوغوسلافية إلى أي قومية أو إلى أي دين ينتمي أو تنتمي. وحتى هذه اللحظة لا أعرف من أي قومية كانت تلك المرأة، لاني لم اتواصل معها بعد ذلك، ولم التق بها ثانية.

في تلك الاوقات كان قد بدأ اهتمامي بموضوع الحضارات. كانت يوغوسلافيا في نظري ونظر الكثيرين ربما أهم جسر حضاري في العالم. ففيها التقت روافد حضارات عدة اسلامية ويهودية ومسيحية ارثوذكسية وكاثوليكية. وقوميات عدة من كروات إلى صرب إلى بوسنيين إلى البان إلى اتراك. ولعل هذا السبب الذي دعا مؤرخا يوغوسلافيا إلى أن يصف يوغوسلافيا على انها "بيت في منتصف الطريق!"

كانت صديقتنا اليوغوسلافية مطمئنة الى أن بلادها لن تتعرض لما حصل في الاتحاد السوفياتي. لم اعرف سبب ارتياحها ولعله كان أمنية أكثر منه شيء آخر!

أظن أن الشعور الوطني بشكله العاطفي الحاد عادة ما يكون أقوى عند المرأة أكثر منه عند الرجل. ولذا ليس من المستغرب أن تكون الغالبية الساحقة من بلدان العالم ذات اسم أنثوي.

على أية حال، كنت آمل فعلا أن يكون اطمئنان تلك الصحافية في مكانه، وإن كنت أشعر بقلق ليس فقط بسبب الإنهيارات التي كانت قد حصلت في الكتلة السوفياتية، لكن أيضا من خلال دراستي لبعض الصراعات خاصة الصراع الذي أدى إلى انفصال باكستان عن الهند، فتعلمت أنه عندما تنطلق الغرائز الشوفينية والدينية فلا يعود هناك مكان للعقل.

كان السؤال الذي فكرت به لدى اندلاع الصراع في يوغوسلافيا: هل يكون بوسع قوى الوحدة أن تصمد أمام اعصار التعصب القومي والعرقي والديني الذي ضرب البلاد بقوة، فجعل ابناء الوطن الواحد أعداء يقتلون بعضهم البعض بوحشية؟

أتذكر أني خضت لاحقا نقاشا صعبا مع صديق شيوعي تركي حول الأمر. كانت اخبار المذابح قد بدأت تنتشر، وإن لم تكن قد وصلت يومها الى لمرحلة التي وصلتها فيما بعد من سوء. قلت للصديق التركي أني أعتقد أن من الافضل الآن أن يتم الاتفاق على تقسيم يوغوسلافيا، لأني أرى صعوبة عودتها كما كانت. تضايق صديقنا الشيوعي، وقال إن من الواجب الآن دعم وحدة يوغوسلافيا! إلى آخر الكلام من الديباجة الشيوعية الكلاسيكية القائلة إن التقسيم يخدم الامبريالية.

لكني لم أكن على رأيه، ليس لأني كنت أتمنى تقسيم يوغوسلافيا، بل لأني أعتقد أن الإنسان هو أغلى قيمة، وما

الفائدة من الدعوة لوحدة بات من شبه المستحيل إعادتها في ظل بحر الدماء والاحقاد والكراهية. وأعتقد أن اتفاقا لو تم في البداية على التقسيم لتم توفير الكثير من الدماء والآلام والمعاناة والكراهية.

فيما بعد رأينا جميعا تجربة انفصال تشيكيا عن سلوفاكيا، وهي من أرقى التجارب الحديثة في الإنفصال السلمي. لقد حصلت التجربة عبر الحوار وبدون ضربة كف. أحداث تلك المرحلة جعلتني أفكر يومها بفكرة أنه عندما يصبح من الصعوبة لابناء الأوطان ذات التنوعات المتعددة العيش معا بسلام، فان إيجاد صيغ ما للانفصال السلمي، ومن ثم التعاون بينها فيما بعد، قد يكون أفضل كثيرا من استمرار القتل اليومي في بلد منقسم على نفسه، وموحد على المستوى الشكلي فقط كحال العراق في منطقتنا في الوقت الحاضر!

وعلى الرغم من أني بدأت أميل إلى هذا التفكير، الا أنه عندما بدأت الامور تصل إلى منطقتنا صرت أفكر أكثر، لأني على يقين تام أن أي تقسيم في منطقتنا سيكون ربحا استراتيجيا لاسرائيل. وكنت شبه متيقن أن قضية فلسطين ستكون الخاسر الاكبر، إذ يعرف القاصي والداني أن تفكيك المنطقة الى عصبيات اثنية وطائفية هي استراتيجية اسرائيلية موجودة ومعلنة منذ تأسيس الدولة الصهيونية.

معرفة هذه الحقيقة المُرة لا تعني توقف المرء عن سؤال ماذا ينبغي عمله الآن في ظروف الإنهيار والصراعات التي تحصل في المشرق.

ولذا فاني اتساءل إن كنت قد وصلنا - اقله كما في الحالة العراقية - إلى وضع سيئ بات علينا أن نختار أهون الشرين! لأني بصراحة أشك كثيرا بامكانية عودة العراق القديم الذي عرفناه.

هل نختار وضعا هو بلد منقسم على المستوى الواقعي كالعراق، يقتل ابناؤه بعضهم البعض كل يوم، ولا آفاق بامكانية استعادة الدولة الواحدة كما في السابق، أقله في المدى المنظور، أم تقسيم شرعي على أساس سلمي، وبناء دولة على أساس فيدرالي توقف الحروب، مما يفتح آفاق تعاون فيما بينها، وتستطيع كل فئة أن تقرر ما تشاء في إطار جغرافيتها؟

هذا ما يبدو لي هو الاختيار الآن، فيما يتعلق بعراق اليوم. وارجو ان ينجح السوريون في حلول سياسية يحافظون من خلالها على وحدة البلاد، لكي لا نصل إلى مرحلة نطرح فيها ذات التساؤلات حول سوريا لاني أكاد أجزم منذ الآن أننا إن وصلنا إلى وضع تقسيمي في العراق وسوريا اللتين هما قلب المشرق العربي، فقد نكون قد أوقفنا الحروب الأهلية، لكن نكون أيضا قد تخلينا عن الفكر القومي التوحيدي الذي يجمع المنطقة الأمر الذي قد يكون له انعكاسات شديدة السلبية لاحقا، ومنحنا شرعية وتبريرا أيديولوجيا لاسرائيل كدولة يهودية دينية ما كانت لتحلم أن تحصل عليها إلا في ظل دول طوائف!

في كل الاحوال، بلادنا تمر حقا في وضع صعب للغاية، وربما نحتاج إلى معجزة لكي تتجاوزها. والمؤسف اننا في صراعات مريرة مع بعضنا البعض، والقوى الكبرى تتدخل بما

يناسب مصالحها فقط، ولسنا في زمن المعجزات التي تحمل الخير لبلادنا!

ثقافة الإنغلاق والتعصب
تهديد للهوية العربية بأسرها

الاعتداء على كنيسة سيدة النجاة في العراق (31-10-2010)، وهو عمل ليس الأول من نوعه إذ تم قتل العديد من رجال الكنيسة العراقية وتهجير عشرات الآلاف من المسيحيين من منازلهم. وكذلك الاعتداء على أقليات أخرى مثل الصابئة واليزيدية وكذا إعمال القتل البشعة على خلفية امتلاك الحقيقة المطلقة. لا شك أن إدانة هذه الأعمال أمر مهم جدا لأنه من الضروري الوقوف بكل جدية ضد الأعمال الإرهابية التي تهدد، بالفعل الإرهابي وبثقافة الإلغاء النسيج الإجتماعي، منطقتنا العربية بأسرها من المشرق العربي إلى مصر إلى الجزيرة العربية إلى المغرب العربي.

لكن بات مطلوبا أكثر من إدانة أمريكا فقط رغم أنها تتحمل مسؤولية هامة في كل الذي جرى في العراق قبل احتلاله وبعد الاحتلال. إن تاريخ الاستعمار يعلمنا الكثير بهذا الصدد.

من المفهوم أن يكون للاحتلال مصلحة لإضعاف المجتمع الذي يحتله لزعزعة مناعته. ومن المفهوم أيضا أن يعمل الاحتلال على إضعاف تماسك النسيج الإجتماعي للبلد الذي يحتله لأجل إضعاف مقاومته. ومن المفهوم كذلك أن يعمل الاحتلال على تهيئة أجواء مضطربة في البلد المحتل وهذه

أمور حصلت بهذا القدر أو ذاك في معظم أو كل الاحتلالات في تاريخ العالم.

كذلك من المفهوم أن تقوم المقاومة بضرب العناصر المتعاملة مع الاحتلال. لكن من غير المفهوم أن تقوم قوى بقتل وتهجير مجموعات بشرية تعيش معها في ذات البلد وتدفع معها ضريبة الحصار والاحتلال.

وهذه الأعمال الإجرامية تحصل على أساس اعتقاد هذا الطرف أنه يمتلك الحقيقة المطلقة الأمر الذي يقدم له مسوغات القتل والإرهاب.

كذلك من الصعب الاقتناع أن أي إحتلال قادر في غضون بضعة أعوام أن ينجح في تغيير ثقافي يطال البني الأساسية في التفكير، خاصة أن قصر مدة الاحتلال الامريكى في العراق لم يتح له الفرصة لتغيير مناهج التعليم التي تعتبر أحد المصادر الأساسية في تزويد الناشئة بالقيم المجتمعية والقيم الثقافية. وأكثر من ذلك فان ثقافة إلغاء الآخر المختلف عنه لم تعد مقتصرة على العراق وهذا هو الأمر الذي يفترض أن يكون مثار قلق حقيقي لأن الأمر بات يطرح تساؤلات حول مستقبل الثقافة العربية بأسرها.

لذا تكمن أهمية العودة الى التاريخ لأجل تسليط ما يمكن من ضوء على تلك الظواهر التي وجدت في مجتمعاتنا منذ فترات طويلة لمواجهة الحقيقة للقول بوجود مثل هذه الظواهر في مراحل سابقة.

ولذا بات لزاما علينا أن نوجه الأسئلة المتعلقة بالثقافة العربية الحاضرة في محاولة لفهم الأسباب التي أدت إلى انتشار ظواهر خطيرة مثل قتل الآخر المختلف في الدين أو المذهب.

لماذا وصلت مجتمعاتنا إلى هذا المستوى من التفكير الذي باتت معه فكرة إلغاء الآخر المختلف فكرة تجد لها قبولا لدى أصحاب الخط الديني المتزمت والمتشدد والمتعصب والمنغلق والذي يزعم باحتكاره الحقيقة المطلقة.

بطبيعة الحال مقالة واحدة لا تكفي إن تجيب على هذه الأسئلة التي تتناول العديد من القضايا التي تراكمت عبر قرون والتي تشكل في تقديري عوامل فعلية أو محتملة لوصول منطقتنا إلى ما وصلت إليه من ثقافة باتت تفتقر للحد الأدنى من ثقافة التسامح.

لكن دعني أورد بعض الملاحظات المتعلقة مباشرة بإحداث العنف التي حصلت في كنيسة سيدة النجاة. لان مسألة الخلط ما بين الغزاة الأوروبيين والمسيحيين العرب ليست مسألة جديدة.

ففي إثناء الحروب الصليبية حصل هذا الخلط وحصلت حوادث انتقام ضد المسيحيين العرب التي جاءت على شكل ردات فعل وقعت هنا وهناك، مع العلم أن المسيحيين العرب، خاصة الارثوذوكس في بلاد الشام كما هو معروف، دفعوا ثمن الغزو الاوروبي الذي اتخذ لبوسا دينيا مسيحيا. وأكثر من ذلك قاوم جل العرب المسيحيين في بلاد الشام الغزو الإفرنجي. فالحملات الصليبية تمت لدواع اقتصادية توسعية وإن تم توظيف الدين والغيرة الدينية لإقناع البسطاء من الأوروبيين للانخراط في تلك الحروب. والغزو الصهيوني الراهن لفلسطين وتجيش

العالم اليهودي ووضعه في صراع بلا آفاق حل ضد سكان فلسطين الأصليين والمنطقة عموما هو نموذج واضح للجميع لكيفية استغلال الدين لصالح خدمة أهداف توسعية.

لكن ردات الفعل التي حصلت إثناء مرحلة الغزوات الصليبية ضد بعض العرب المسيحيين لم تصل إلى مرحلة التنظير الفكري الديني الذي يعزز بطريقة مباشرة أو غير مباشرة فكرة إلغاء الآخر من المواطنين المختلفين في العقيدة عن الطرف الذي يزعم فيه أنه يملك الحقيقة كلها. وهذا ما قد يفسر على سبيل المثال أن المؤرخين العرب استخدموا تعبير الغزو الإفرنجي بدل تعبير الحروب الصليبية الذي هو من صياغة المؤرخين الأوروبيين. ويبدو أن هناك علاقة وطيدة ما بين مراحل الإنحطاط التي مرت بها مجتمعاتنا وما بين بروز تلك الظواهر المرضية التي رافقتها تنظيرات قدمت مسوغا فكريا دينيا لحملات الإلغاء. ففي المرحلة المملوكية على سبيل المثال والتي يمكن إدراجها ضمن مراحل التخلف العام الذي ساد المنطقة تم تجريد العديد من الحملات العسكرية والتي عرفت بالحملات الكسروانية في القرن الرابع عشر والتي استهدفت كافة الطوائف التي لا تؤمن بالخط الرسمي للدولة المملوكية. وقد طالت هذه الحملات بنسب متفاوتة السكان المسيحيين الموارنة في تلك المناطق.

أما في الزمن الحالي، جاء الإسلام السياسي المعاصر خاصة الأكثر تشددا وعنفا في مرحلة في مرحلة تحولات كبرى يشهدها العالم ومنها منطقتنا. ولعل ابرز ظواهرها هو الضعف العام للدول القطرية التي يبدو أنها أخفقت في حل العديد من

الإشكاليات المتعلق بالتنمية والحريات العامة إلى ما هناك من قضايا تتعلق بحياة الناس. وهذه الأمور أدت أو كانت نتيجة ضعف الثقافة العقلانية في المجتمعات العربية حيث لم يزل الموروث الثقافي الستاتيكى يحتل مساحة هامة في حياة المجتمعات العربية الأمر الذي يسمح ببروز ظواهر التطرف.

وأنا أعتقد أن تأسيس الدولة الصهيونية في فلسطين لعب دورا هاما في تشجيع تلك الظواهر لأنها قدمت مفهومين جديدين للمنطقة.

المفهوم الأول، أنها قدمت نموذجا للدولة القائمة على أساس ديني رغم علمانية النخب المؤسسة للمشروع الصهيوني ولكنها تنازلت للتيارات الدينية الأصولية لأجل غايات حزبية ضيقة الأفق ساهمت إلى إضعاف التيار العلماني وتنامي التيار الحريدي الاصولي الذي بات يحكم الدولة الصهيونية الآن.

النموذج الثاني، الذي قدمته إسرائيل كان فكرة إلغاء الآخر وذلك عبر حملات الطرد الجماعية للسكان الأصليين والتي حدثت في ظل أجواء قتل جماعي طال سكان فلسطين مسلمين ومسيحيين.

وكذلك في ظل استمرار الحرب المستمرة منذ ما يقارب القرن والتي ساهمت في اضطراب العديد من مجتمعاتنا الأمر الذي أدى الى انتشار الثقافة العسكرية التي تم التعبير عنها في مراحل سابقة بالإنقلابات العسكرية.

وهكذا في ظل أجواء تراجع العقلانية العربية وكذلك في ظل هزائمها أمام إسرائيل وكذلك في ظل تراجع الطبقات الوسطى في المجتمع لصالح أحزاب قومية جاء معظم قياداتها من أوساط

ريفية لا تملك خبرات إدارة الدولة الحديثة. الأمر الذي أدى إلى التعامل مع المجتمع على أساس أنه ثكنة عسكرية، وهو ما أدى إلى بروز ما يمكن تسميته بـ"المجتمع-الثكنة" الذي ينفذ ولا يعترض. والذي أدى فشله إلى بروز ظواهر رد الفعل القوية التي نشهدها الآن، وهي ظواهر تكون عادة متصلة بمراحل التحولات الكبرى وأوقات الأزمات المجتمعية العميقة.

في هذا الإطار يمكن لنا فهم ما حصل ويحصل من انتشار لثقافة إلغاء الآخر التي تعبر عن نفسها بالعنف اللفظي حينا والجسدي حينا آخر.

ولذا فان مسألة الإعتداء على كنيسة سيدة النجاة مسألة لا تهدد فقط أقليات المنطقة العربية بل باتت مصدر تهديد لهوية الثقافة العربية بأسرها التي تطمح أن تطور نفسها في ظل ثقافة التسامح وقبول الآخر، وذلك من خلال الرؤية التي عبر عنها فارس الخوري رئيس وزراء سورية في ثلاثينيات القرن الماضي القائلة: الدين لله والوطن للجميع.

من القابلية للاستعمار
الى القابلية للتفتت

قبل أكثر من نصف قرن أنتج مالك بن نبي نظرية "القابلية للاستعمار" في زمن كانت جل المنطقة العربية خاضعة لأنواع استعمار بمسميات مختلفة من الحماية إلى الإنتداب. كان بن نبي يسعى لمعرفة مكامن المشكلة التي أدت بالوضع العربي إلى ما وصلت اليه من استنزاف للطاقات الروحية والمعنوية التي أدت بها في النهاية إلى الفشل في ادارة شؤونها والذي فتح المجال للاستعمار الغربي بأنواعه للسطو على المنطقة العربية. لذا فان أهمية حفريات ابن مالك انها كانت تتجاوز الظواهر السطحية للمشكلة لكي تغور في أعماقها.

أهمية فكرة القابلية للاستعمار التي طرحها في كتابه "مشكلات الحضارة" انها قلبت الفكرة السائدة التي كانت تقول إن الإستعمار سبب للتخلف في منطقتنا، إلى الفكرة التي تقول إن التخلف في منطقتنا هو سبب مجيء الإستعمار. ومعنى هذا أنه لو كانت مجتمعاتنا قوية ومحصنة لما وقعت تحت سيطرة الإستعمار من الأساس.

لقد ركز ابن نبي على أهمية الأفكار مقابل الأشياء التي يمكن لها أن تُدمر، وهذا الأمر شاهدناه في ألمانيا واليابان اللتين تم فيهما تدمير عالم الأشياء لكنهما تمكنتا بواسطة الأفكار من استعادة دورهما بعد جيل واحد.

وعلى نسق ابن نبي، أستعمل تعبير القابلية للتفكك على ضوء التطورات المتسارعة التي تمر بها المنطقة العربية والتي تشهد أعمال عنف وعنف مضاد تصب وتساعد في تفتيت نسيج مجتمعاتنا.

وعندما استعمل تعبير "القابلية للتفكك"، فاني لا أعني بطبيعة الحال الطبيعة التعددية العرقية والدينية للمنطقة العربية لأن هناك فرق ما بين التعددية والقابلية للتفكك. التعددية في بلادنا قديمة وعريقة ولقد تمكنت هذه المجموعات المتنوعة من إيجاد صيغ عيش مشترك طوال التاريخ. الأمر الذي يؤكده غياب ثقافة المجازر والإقصاء من ثقافة المنطقة على المستوى التاريخي رغم الأحداث الصغيرة التي حصلت هنا وهناك والتي كانت في غالبها تتم بتحريض من خارج المنطقة.

والحقيقة المؤكدة التي نعرفها نحن طلاب التاريخ أن العرب المسيحيين والمسلمين عاشوا دوما في وئام إلا عندما كانت تحصل تدخلات أوروبية خارجية، كان المسيحيون غالبا من يدفع الثمن الأكبر. فعلى سبيل المثال كان يشكل المسيحيون في بلاد الشام قبيل الغزو الإفرنجي في ما يعرف بالحروب الصليبية حوالي 65 بالمائة من السكان. لكن بعد مائتين عام من الاحتلال الأوروبي باتوا يشكلون حوالي 45 بالمائة من عدد السكان.

ففي أثناء هذا الصراع الذي اعتبرته أوروبا صراعا دينيا حصل تطور هام في سيكولوجية المسلمين الذين كانوا قد اعتادوا على رؤية الصليب كرمز لاضطهاد المسيح إلى رمز عدواني لاضطهادهم الأمر الذي اختلط عليهم في مراحل لاحقة

على التمييز بين الصليب الذي يحمله المسيحي العربي والذي يرمز للفداء والتضحية من أجل الإنسانية والصليب الغربي المرتبط بالاحتلال والعدوان.

وما رأيناه من أعمال مكثفة لمراكز أبحاث غربية خاصة في المائة عام الاخيرة والتي ركزت بطريقة مبالغة على خصوصية الحالات الثقافية في مجتمعاتنا لأجل العبث بها، وابرز مثال على ما نقول السياسة الفرنسية التي كانت في الداخل الفرنسي تحارب الكثلكة والتدين لكنها في منطقتنا كانت تعبث بمكونات مجتمعاتنا من فكرة الظهير البربري في المغرب إلى حماية الموارنة في جبل لبنان إلى السعي لاقامة دويلات علوية ودرزية في سوريا.

لكن التفكك يحصل الآن في ظل الدولة الوطنية المفترض أنها لجميع مواطنيها بغض النظر عن انتماءاتهم العرقية أو الدينية.

بالتفكك أعني هنا انتشار ثقافة تضخيم الذات للمجموعات العرقية والدينية وبحث كل منها عن ذاتها بمعزل عن مجموع الوطن الموحد.

وهذا الشعور لا يأتي من فراغ بل يعبر في أغلب الأحيان عن مشاعر حقيقية لتلك المجموعات بالتهميش. وغالبا ما يأخذ هذا التهميش أبعادا ثقافية أو اقتصادية.

التفكك النفسي عندما يشعر بعض المجموعات العرقية أو الدينية أن الدولة تهمشهم الأمر الذي يضعف ولاءهم للدولة بطبيعة الحال وبالتالي يصبح لديهم الاستعداد والقابلية للتعاون مع أعداء الوطن لأجل الإنفصال عن الوطن الأم، أو بالحد

الأدنى يأخذون موقف الحياد اذا ما غزيت بلدهم من عدو خارجي لأنهم باتوا في وضع لا يميزون كثيرا ما بين الذين يهمشونهم أو يضطهدونهم في الداخل والعدو الخارجي الذي عادة ما يوجه لهم خطابا مزيفا يعد بخلاصهم لأجل أن يصنع منهم جسرا.

وكل تفكك نفسي وإجتماعي كما رأينا عبر التاريخ يكون عادة اذا ما حصلت تطورات سياسية مساعدة بداية للتفكك على المستوى القانوني أو الشبه قانوني.

لهذا السبب فأني أعتقد أن ما نراه من أعمال عنف قد جاء لا عبر طروحات لحماية هذه الفئة أو حتى طرح حصص في البرلمان أو سواه لان هذا الطرح خاطئ لانه لا يتعرض للمشكلة من الجذور وبالتالي يقدم حلولا مسكنة لا تحل المشكلة من الأساس.

بمعنى آخر، إن مشكلة ما يسمى بالأقليات لا تعالج إلا كمشكلة وطنية وليست كمشكلة تخص هذه الفئة أو تلك.

تكمن المشكلة أولا، بالنظام السياسي الذي يفترض أن يكون معبرا عن النسيج الإجتماعي المكون للبلد، وعدم تمكن النظام من أن يعكس حالة أو حالات التنوع المجتمعي، ستقود إلى تهميش مجموعات سيضعف بالتدريج انتماءها للوطن الجامع مما يجعلها في وضع القابلية لقبول أفكار معادية لمجموع الوطن غير مدركين بسبب الضغوط عليهم أن التدخلات الخارجية لا تأتي لتدافع عنهم بقدر ما تستخدمهم لأجل أجندتها السياسية.

لذا تصبح مسؤولية النظام السياسي العمل على تفعيل ثقافة الوطن للجميع بالحقوق والواجبات وهذا من شأنه أن يحترم

الخصوصيات الثقافية لكن ليس على حساب الإنتماء للوطن الأكبر.

لذا بات من الضروري العمل على تغيير الثقافة السياسية السائدة والتي تركز على تنمية المركز على حساب الأطراف والمناطق الريفية والتي عادة ما تكون الأقل حظا في التنمية وتصبح المشكلة أكبر إن كانت تسكن تلك المناطق مجموعات عرقية تختلف عن المجموعات التي تقطن في المركز كما في الحالة السودانية.

واذا ما نجحت الدولة في تحصين الجبهة الداخلية الأمر الذي يقوى فيه الإنتماء للوطن يصبح بالإمكان نزع كافة الأسباب التي قد تقوي ثقافة القابلية للتفكيك.

باختصار أعتقد أن هناك ثلاث تحديات أساسية أعتقد أن حلها يعني حل مصدر معظم علل بلادنا:

على المستوى السياسي: مسألة الوطن للجميع وهذا يعبر عنه بالتمثيل السياسي والإنمائي المتوازنين.

على المستوى الثقافي والإجتماعي: العمل على تعميق ثقافة قبول الآخر ونشر ثقافة الدين لله والوطن للجميع وثقافة "لكم دينكم ولي دين".

على المستوى العربي: التعاون ما بين الاقطار العربية وجعل المنطقة كلها سوق مفتوحة للجميع، والعمل على إحباط الخطط الصهيونية التي تسعى كما كانت دوما تصرح على العمل لتمزيق مجتمعاتنا وهذا أمر رأينا اثاره في لبنان والعراق والآن في السودان.

هل تكفي نظرية الاضطهاد لتفسير انفصال المجموعات العرقية؟

ما أسعى له هنا هو محاولة لفهم دوافع إنفصال الأعراق، بقصد فهم أفضل لتكوين تلك الدوافع وتطورها وذلك عبر استقراء نماذج الإنفصال التي حصلت في التاريخ الحديث منتهيا بالنموذج السوداني.

وبهذا المعنى فان ظاهرة الإنفصال ظاهرة تاريخية حصلت في العديد من المجتمعات وليس في المجتمع العربي فقط. حيث تسود الآن لغة (الحنين الإندلسي) في معظم الكتابات العربية حول السودان بعد الإنفصال الذي كان للأسف حتى وقت قصير من أقل الدول العربية حضورا في دائرة الاهتمام العربي. علما أن المتتبع لأوضاع السودان، على مستوى التخبط الداخلي وحجم التدخلات الدولية، سيقدر منذ سنوات طويلة أن الأمور تتجه نحو الإنفصال.

لمناقشة إشكالية الإنفصال لا بد لنا من تحديد إطار نظري نتمكن من خلاله من تحديد الإنفصال كمفهوم نظري.

بالإنفصال أعني قيام مجموعة عرقية أو دينية بالتمرد بقصد الإنفصال على الدولة الجامعة بقصد تأسيس كيان سياسي مستقل. وهذا التمرد كما عرف تاريخيا لا يأتي فجأة بل يكون له مقدمات يمكن لصناع القرار السياسي أو العاملين في مراكز البحث معرفتها أو تقديرها على الأقل.

فعلى سبيل المثال سبق انفصال المستوطنين الأوروبيين الذين أسسوا الولايات المتحدة (وكانوا في معظمهم من أصل انكليزي) ظهور ثقافة خاصة بالمستوطنين تم التعبير عنها بالثقافة وخاصة بالأدب الذي بدا يأخذ خطوات مستقلة عن الادب الإنكليزي في الوطن الام حتى أن شاعرا أمريكيا قام بانتقاد الشعراء الأمريكيين الذين يكتبون شعرا عن القُبّرة وهي طائر انكليزي وليس أمريكيا متسائلا لماذا يكتب شاعر عن طائر لا يعرفه؟

يلاحظ المفكر اللبناني غسان سلامة أن الهوية العرقية تبنى على أساسيين، الأول، التركيز على خصوصية الهوية الخاصة بالمجموعة العرقية. والثانية، التركيز على الغيرية أي على الفروقات ما بين ثقافة هوية الجماعة الثقافية والثقافة الأساسية.

ولذا فان من الممكن القول إن الغالبية الساحقة من حالات الإنفصال السياسي في التاريخ كان يسبقها انفصال ثقافي ونفسي وسعي لابراز هوية غيرية عن الهوية الجامعة.

وفي الزمن الحاضر هناك العديد من الاعراق التي تفكر أو تسعى أو تشعر أن من حقها الإنفصال مثل التاميل في سيريلانكا والأكراد والباسك في شمال اسبانيا والكاثوليك في ايرلندا الشمالية وفي اسكتلاندا.

وفي تاريخنا العربي الحديث نشأت الجمعيات الثقافية في العهد العثماني التي ركزت على الخصوصية العربية خاصة في حقلي اللغة والثقافة والتي بدأت تنشر الوعي بالهوية الذاتية للعرب كقومية منفصلة. وهذا التأكيد على الثقافة العربية كان أحد الأسلحة المستخدمة خاصة وأن الغالبية من العرب والاتراك

تتشارك الدين الإسلامي لذا بات من الضروري البحث عن الأسلحة الفكرية التي تمايز العرب عن الاتراك حتى أن الشريف حسين أعلن "إننا عرب قبل أن نكون مسلمين" وهو تعبير سيثير الآن على الارجح ردود فعل واسعة من طرف التيار الديني. لكنه بلا ادنى شك كان يعكس مناخات تلك المرحلة عندما بدا العرب يشعرون بذاتهم القومية بعدما كانوا قد (استقالوا) من التاريخ وسلموا أمر بلادهم للفرس وللمماليك والاتراك السلاجقة والعثمانيين لحوالي الف عام.

دعني أولا، أسعى لفهم ظاهرة الإنفصال عبر مناقشة أهم النظريات السياسية الانثروبولوجية التي تسعى لفهم أسباب الإنفصال ودوافعه وآليات عمله.

من أهم النظريات التي تسعى لفسير ظاهرة الإنفصال نظرية الإضطهاد.

تعتبر هذه النظرية الإضطهاد بانواعه، سواء كان على المستوى العرقي أو الديني أو الاقتصادي، من أهم الأسباب التي تشجع على الإنفصال. ولذا فبغض النظر، إن نجح الإنفصال أو لم ينجح، فالأمر غالبا ما يكون متداخلا مع ضغوطات وتدخلات دولية إلا أن هذا يعكس على الأغلب توترات مجتمعية داخلية يسودها التوتر خاصة ما بين المجموعة الراغبة في الإنفصال والدولة الجامعة.

فالدول الكبرى لا تخترع الخلافات والتمايزات الدينية أو القبلية أو سواها إنما تغذيها وتلعب عليها بما يخدم مصالحها. وسياسة الامبراطور الرومانى جوليوس قيصر (فرق تسد) لم

تزل أمضى الأسلحة بيد القوى الكبرى للعبث بنسيج مجتمعاتنا واضعافها.

واذا ما عدنا للقرن العشرين وحده فسنجد العدد الكبير للدول التي انفصلت عن الامبراطورية النمساوية الهنغارية والامبراطورية العثمانية والاتحاد اليوغوسلافي والاتحاد السوفياتي وتشيكوسلافيا.

كانت الشيوعية تملك خطابا فوق قومي قد نجحت باستخدام أساليب متعددة بما فيها العنف في جمع هذه المجموعات في بوتقة الاتحاد السوفياتي أو الاتحاد اليوغوسلافي لكن ما أن انهارت الشيوعية حتى بدت كل مجموعة ثقافية في البحث عن ذاتها.

طبعا لا نبغي هنا مناقشة تفاصيل كل هذه الإنفصالات لأن هذا موضوع طويل أكبر من إمكانية المقال إلا أن مسألة الاضطهاد أو الخوف من الإضطهاد من قبل الاكثرية كما في حالة تكوين باكستان ومسائل تتعلق بالضغوطات المختلفة على الهوية الدينية أو العرقية قد تكون القاسم المشترك لمعظم حالات الإنفصال.

لذا فمشكلة الإنفصال مشكلة عالمية ولا تختص بشعب من الشعوب لكن بطبيعة الحال لا بد من التفريق ما بين الإنفصال الذي يجد شرعية شعبية والإنفصال المفروض بالقوة كما حصل في سايكس بيكو حيث تم تقسيم المشرق العربي (سورية الجغرافية باقاليمها الاربعة المعروفة ببلاد الشام سوريا الحالية والاردن ولبنان وفلسطين اضافة للعراق) بين بريطانيا وفرنسا التي خلقت هويات مصطنعة باتت للأسف من الحقائق السياسية

الموجودة. وكذلك في منطقة الخليج حيث تم بتشجيع من الدول الغربية ايجاد هويات مصطنعة أقيمت على أساسه كيانات سياسية باتت أمرا واقعا.

والسؤال الذي يطرح نفسه هو: هل من الممكن لنظرية الاضطهاد أن تكون كافية لتفسير الإنفصال؟

من الصعب الإجابة على هذا السؤال لأنه في عصر العولمة راجت فكرة مفادها أن العولمة ستساعد الشعوب على التعايش بسبب سرعة الإنتقال والاتصال لكن اتضح فيما بعد أن ذلك الطرح كان موغلا في التفاؤل إذ ظلت مسألة العرقيات مسألة مطروحة على مستوى الدراسات السياسية والإنثروبولوجية.

هناك من الامثلة ما يثبت أن نظرية الاضطهاد لا تكفي وحدها لتفسير الإنفصال، ولذا دعنا نطل على حالة الباسك في شمال اسبانيا الذين يطالبون بالاستقلال.

فمنطقة الباسك تتمتع بحكم ذاتي أي انها لا تعاني أي اضطهاد من حكومة المركز كما كان الأمر في الماضي. أضف أنها منطقة صناعية من أغنى مناطق اسبانيا لكن رغم ذلك لم يزل قسم كبير من سكانها يأمل بالإنفصال عن اسبانيا بل وتمارس منظمة "الايتا" العنف لهذا الغرض.

كيف يمكن تفسير ذلك؟

من الصعب إعطاء جواب قاطع على هذا السؤال لان نظرية الاضطهاد قد لا تتمكن من تفسير هذه الحالة. لكن، ربما يكون الشعور التاريخي بالاضطهاد الذي بلور هوية الباسكيين عبر الاجيال أحد العوامل التي تدفع بهذا الشعور.

بمعنى آخر لقد انتهى الاضطهاد كفعل مادي لكنه بقي في الشعور حيث يتغذى من التعليم والتراث والفولكلور كسواها من مصادر المعرفة.

ومن علم النفس نعرف مدى ترابط ثلاثية التفكير والشعور ومن ثم السلوك. أي ان التفكير بالاضطهاد التاريخي هو الذي يولد شعورا بالاضطهاد ومن ثم يحدد طبيعة السلوك.

أما في الحالة السودانية فانني أعتقد أن نظرية الاضطهاد تقدم تفسيرا جزئيا للمشكلة.

وحسب اعتقادي يمكن تفسير الإنفصال السوداني بثلاثة عوامل اساسية:

العامل الاول، هو عدم قدرة الحكومات السودانية المتعاقبة من تقديم نموذج سياسي تُراعى فيه التعددية السودانية الأمر الذي ساهم للاسف في اضطهاد مناطق الجنوب اقتصاديا وثقافيا.

ومن المهم التأكيد أن هذا العامل هو الذي فسح المجال للقوى الكبرى والصهاينة للتدخل.

العامل الثاني، نجاح النخب الجنوبية في الاستفادة من المناخ الغربي المعادي للعرب والمسلمين مقدمة نفسها كحركة تحرر وطني تناضل للتحرر من (الاحتلال العربي الإسلامي!) وهو خطاب يتناسب بدقة شديدة مع الرؤى والمشاريع الإمبريالية والصهيونية. وهذا ما يفسر قدرة الحركة الشعبية على الحصول على دعم لتمويل جيش يعادل قوة الجيش السوداني.

العامل الثالث، هو التدخل الأجنبي من الدول الكبرى بدفع ودعم من الصهيونية التي لعبت على إيجاد هوية جنوبية

مصطنعة. فجنوبي السودان يتألف من قبائل مختلفة منها حوالي 50 بالمائة مسيحيون و30 بالمائة وثنيون و20 بالمائة مسلمون. أي انه لا يوجد حالة عرقية محددة كما في الحالة الباسكية أو الحالة الكردية على سبيل المثال. لكن التهميش الذي تعرضوا له ربما ساعد على تشكيل هوية جنوبية باتت مرتبطة بالاضطهاد الأمر الذي تعزز عبر النفخ الاجنبي.

واذا ما قارنّا الوضع في السودان بالوضع في اثيوبيا التي تحكم من قبل نخبة من قبيلة التغراي وفي ظل تهميش كامل للارومو والامهرة، إلى ما هناك من عرقيات متعددة تصل إلى ما فوق الاربعين في المائة من السكان حيث تختفي الضغوط الإمبريالية والصهيونية، ندرك عندها مدى ما تعرض له السودان من ضغوط امبريالية وصهيونية للوصول إلى ما وصلنا اليه وهي تدخلات عقود من الزمن وليست ابنة الامس. لكن من المؤكد أن المسؤولية الأولى تكمن في التقصير العربي، وفي مقدمته تقصير النخب السودانية الحاكمة منذ الاستقلال حتى الآن في وصول البلاد إلى ما وصلت اليه من وضع مفكك. وما يحصل في دارفور يعطى مثلا اضافيا لهذا التقصير.

في النقد الإجتماعي والسياسي

الذين يتبنون نظرية التقدم عبر نقد الطبقة السياسية الحاكمة في بلادنا محقون بلا شك. لكني أرى ذلك نصف المشكلة، وأحيانا أراها أقل من نصف المشكلة. لأني أعتقد أن السياسي يستند على الثقافي وليس العكس، ولأن رجل السياسة في نهاية المطاف منتج لثقافة معينة، وافكاره لا تأتي من السماء كما قال تروتسكي ذات مرة، بل من الخزان الثقافي الموجود.

كيف يمكن مثلا أن تعيش مجموعات ثقافية في بلد واحد، وتكون في ذات المدارس والجامعات والادارة والجيش... الخ، ثم لا يعرفون بعضهم البعض ألا عبر تصورات كل واحد عن الآخر، منها ما هو غير صحيح أو ما يظنه عن الآخر. نحن ببساطة لا نعرف بعضنا البعض. بل لدينا كم ليس بالقليل من الصور النمطية، أو الافكار التي تشجع على الصور النمطية وعلى استمرارها كأن يأتي أحدهم، ويقول السنة كذا والمسيحيون كذا والشيعة كذا، الخ من الكلام التعميمي الغارق في الجهل، والذي لا ينتج الا العنصرية والكراهية وهدم أوطاننا فوق رووسنا جميعا. وجل أحاديثنا عن التعايش ذات طابع فولكلوري شكلي وساذج، كأن يضعوا صورا لرجال دين من طوائف مختلفة وهم يبتسمون وكأن هذا هو التعايش!

ولعمري هذا أمر شكلي لا أكثر ولا اقل. لكي تعيش مع الآخرين لا بد أن تعرف ما هي هواجسهم، وكيف يفكرون. تسمع على سبيل المثال بالعلويين أو الدروز أو السريان وهم من

ابناء بلادنا، وليس من البرازيل أو جزر القمر، والغالبية العظمى لا تعرف شيئا عنهم. من هم هؤلاء وكيف يفكرون وما هي معتقداتهم؟ وغالبا الذين لا يعرفون يقعون في إطار ثقافة التعميم والاحكام الفجة، وهذه الثقافة كارثة علينا خاصة عندما نقع في الازمات.

ولكي تعرف كيف يفكر الآخر، لا بد من تنمية ثقافة حب الاستطلاع المعرفي في المدارس. وهذا يبنى عبر تنمية ثقافة المعرفة استنادا على نهج احترام الآخر المختلف عنك في التفكير أو المعتقد، وبناء جسور الإخوة المستندة على المشتركات والقيم الوطنية والإنسانية. والمعرفة أساس ذلك، وأنا من الذين يعتقدون أن أكثر من نصف مشاكلنا أن تُحل لدى توفر المعرفة بها.

لقد حبا الله والتاريخ بلادنا بإرث ثقافي وحضاري يُعد مبعثا للفخر والاعتزاز. ألا وهو هذا التنوع الثقافي الموجود قبل زمن طويل من ظهور مصطلح "المجتمعات المتعدده الثقافات"! كما في امريكا وكندا وسواهما. ولكن بدل أن يكون هذا الأمر سببا من أسباب القوة والنهوض بات كارثة علينا بسبب ثقافة الجهل والالغاء واخواتهما.

لا بد من زحزحة التاريخ
لكي لا يظل قاتلنا الاكبر!

دعوت منذ زمن وما زلت الى مقاربة تاريخية تتجاوز السردية نحو تاريخ نقدي ينطلق من واقعنا المعاصر لاجل مقاربات جديدة.

نحن في زمن انفتح فيه التاريخ على العلوم الأخرى من سوسيولوجيا إلى انثروبولوجيا إلى اركيولوجيا إلى علم النفس إلى الاقتصاد. نحن في حاجة إلى مقاربات جديدة تثار فيها الاسئلة وتتفتح العقول على فهم أفضل للإشكاليات. فالتاريخ في نهاية المطاف ليس ماضيا تماما لأنه أحد محددات هويتنا الوطنية. ولأنه كذلك، فلا بد من مقاربة تاريخية شجاعة لا تخشى من مواجهة هذا التاريخ.

تاريخنا كما تاريخ الشعوب الأخرى شهد ظلما كبيرا وقع على الناس سواء على المجموعات الكبيرة أو بشكل خاص على المجموعات الأصغر حجما. للأسف لا يمكننا انكار الجانب المظلم من تاريخ البشرية بما فيه تاريخنا، وإن وجدت شخصيات عظيمة ببعديها الاخلاقي والإنساني مثل غاندي، فهناك مقابلها أيضا من شخصيات دموية مثل جنكيز خان ونيرون وهتلر.

التصدي لهذا الأمر عبر جهد اكاديمي كبير ضروري من أجل صياغة رؤى تاريخية منفتحة وغير الغائية لأحد. وهذا لا

يعني إقصاء الجانب المظلم من تاريخنا لأنه موجود ومن الحماقة أن نشطبه وندعي عدم وجوده كما في حالة البعض ممن يصور أن حال بلادنا كان على أحسن حال قبل الغزو الاوروبي وهو أمر غير صحيح البتة.

حتى إلقاء نظرة سريعة على الجغرافية السكانية في بلاد الشام على سبيل المثال إنما تعطينا فكرة عن تاريخ هذه المنطقة. فستجد مثلا أن مدن الساحل حيث الشعور بالأمان يسكنها في الاغلب مسلمون سنة (لان الدولة كانت تاريخيا كذلك!) ومسيحيون ارثوذوكس (الذين هم في الاغلبية من اصول عرقية عربية من الغساسنة والجزيرة العربية!)

أما إن ذهبت نحو الجبال التي كانت تشكل الحصن المنيع للفرار من القمع فستجد الدروز والعلويين والموارنة والشيعة.

هذه الجغرافيا تحكي تاريخا من الظلم والاضطهاد والتمييز.

صحيح أن الأمر لم يكن دوما ذات الشيء، وهامش التسامح كان يتسع ويضيق حسب الحكومات. لكن هذا جزء من تاريخنا الذي لا بد من صقله وتهذيبه وتنقيته من الدمامل التاريخية التي تنفجر بين حين وآخر. وكذلك من التوظيف السياسي الضيق الافق الذي يباعد بين المواطنين. وهذا، بالطبع، لا يتم إلا عبر مقاربة نقدية. وأنا أعتقد أنه كان من الممكن تجنب سفك الكثير من دماء الأبرياء، لو تمكنا في السابق من مقاربة تاريخنا بطريقة موضوعية وعلمية وصادقة لأن هذا يعني تثقيف الأجيال على رؤى منفتحة تشجع روح النقد ولا تشجع التعصب والإنغلاق باتجاه الهوية الأصغر كما هو الحال الآن.

كل مجموعة ثقافية دينية لها تاريخها المختلف والمتصادم مع الآخر مع انتقائية للتاريخ الذي يعزز هذه الصراعات ويجعلها حية. والقوى الدينية المجرمة والمتخلفة ومن يدعمها، لا تتوانى عن توظيف هذا كله واسقاطه على الحاضر وجعل اطفال بلادنا وقودا لحروبها الوحشية.

بوضوح أكثر، يوجد تشظي هائل للهويات في المنطقة الى درجة مخيفة. فالهويات الآن تبنى على أساس هذا التشظي المفاهيمي حيث سقطت كل مفاهيم الإنتماءات الوطنية بل والإنسانية أيضا، والا كيف يمكن تفسير آلاف العمليات الآنتحارية المجرمة وسط الناس الأبرياء. لقد سقطت الإنتماءات الوطنية وصار السنة في المشرق ينظرون للسعودية وسواها على انها مرجعيتهم، والشيعة ينظرون الى إيران بذات الأمر، والمسيحيون الحائرين في هذا الوضع يجدون أنفسهم بين هذه النيران المشتعلة.

توحيد النظرة للتاريخ له علاقة بالنظرة للمستقبل، إن لم يتم توحيد الماضي فلن يُوحد المستقبل، ولا يمكن حصول دمج مجتمعي قبل تحرير العقول من تراث الصراعات. ولإبطال مفعول متفجرات اليوم، لا بد من ازالة متفجرات التاريخ التي تنتج هذا الدمار.

لذا لا بد من تاريخ لا يضع فواصل بين الإنثروبولوجيا والتاريخ والسوسيولوجيا. لا نقصد هنا دمجا تاريخا للمجموعات بطريقة قسرية، بل تقديما لرؤية أكثر انفتاحا للتاريخ، من أجل حاضرنا ومستقبلنا، ولكي نتمكن في المستقبل من بناء أوطان بانتماءات حقيقية تشمل الجميع ولا تقصي أحدا!

لأجل احياء قيم عصر التنوير العربي

في غمرة ما يحصل الآن من تخبط وبحث وصراعات في المنطقة العربية أعتقد بضرورة إعادة قراءة كتابات مفكري عصر النهضة. والسبب ان هؤلاء قد تناولوا في الواقع جل مشاكلنا التي ما زلنا نعيشها الآن والممثلة في التخلف والتصعب والتراجع الفكري العام. ومنطقتنا كما يعرف الجميع باتت الآن ورقة في مهب الريح يسهل التلاعب بها من القوى الخارجية بسبب ضعف المناعة.

لذا يجب الربط بين أفكار التغيير نحو الديمقراطية والعدالة وبين تدمير كيان اوطاننا. الحكّام كما سائر البشر زائلون لكن اوطاننا ملك للاجيال القادمة ومن الجنون أن لا يجد اطفالنا وطنا يعيشون فيه بسلام وطمانينة. وانتشار فكر التعصب الديني قضية مهددة لوجودنا كله لانها تضرب مكونات مجتمعاتنا ببعضها البعض وتضع بلادنا في المجهول.

أهمية مفكري عصر النهضة أنهم ساهموا بتقديم أفكار جديدة لم يكن مُفكرا بها من قبل. أي انهم في الواقع لم يبنوا افكارا على ما سبق لأن المنطقة كانت غارقة في ظلام استمر حوالي الألف عام.

كما أن أهمية فكرهم أنهم جاؤوا في مرحلة ما بعد الهزيمة أمام نابليون وناقشوا نتائجها ليس من منظور التفوق في الاسلحة الحديثة فقط بل من منظور مراجعة المنظومة السياسية والإجتماعية العامة التي ادت الى الهزيمة.

كانت لهم آراء مهمة في هذا الشأن. فقد رأى الكواكبي مثلا أن الإستبداد هو علة العلل في عالمنا. كما رأى شبلي الشميل ان الشعب الغارق في الجهل يخشى أي جديد وكأنه أمر مفزع. ومن هنا كانت دعوته لاصلاح العقل الجمعي بما يحمله من موروثات تقف حجر عثرة في سبيل التطور.

ولم ير جل مفكري عصر النهضة، من محمد عبدة الى رشيد رضا الى شبلي الشميل الى فرح انطون.. الخ، أي تناقض بين الدين والعلم. بل اعتقدوا أن مجال الدين أوسع بكثير مما يعتقد البعض. أما الشيخ علي عبد الرازق فلم ير أن للاسلام دولة وفق مقولة "الإسلام دين ودولة" وركز في كتابه "الاسلام وأصول الحكم" على مسألة الإيمان كأساس لاتباع الدين وليس اتباع السياسة الدينية.

الخلاصة اننا الآن بحاجة ماسة للفكر التنويري من أجل أن ننتقل باوطاننا من مرحلة الفكر الأحادي الى مرحلة الانفتاح والتعددية وتعميق قيم الاخاء والتسامح.

لا يمكن نقد الدول
بدون نقد ثقافة المجتمعات العربية

أظن أن الوقت قد حان لأن نرى الصورة متكاملة. نقد الدول وتحميلها كل مشاكل العرب أمر لا أظن أنه يستجيب مع الواقع. لا بد لنا من رؤية متوازنة لكي نرى الأمر بوضوح. الدول والمجتمعات العربية وسواها من نخب كلٌّ يتحمل قسطا ما من المسوؤلية.

ولا أعتقد أن سياسة شيطنة طرف وتصوير طرف آخر على أنه ملاك سياسة صحيحة. بل وأعتقد أنها نظرة اختزالية للواقع البائس الذي نعيشه. الدول تقمع وتسجن وتعذب وتقتل هذا كله صحيح، لكن ثقافة قطع الروؤس ليست من الدول، بل من الثقافة الموجودة في داخل المجتمعات. قتل وخطف السواح الاجانب الذين يأتوا لزيارة بلادنا ليس من الدول بل من المجتمعات، وبالتحديد من فكر متطرف الغائي واقصائي لا يقبل الآخر المختلف عنه. وثارات القتل العشائري من ثقافة المجتمعات وليس من الدولة.

وهذا الإنفلات الطائفي الغرائزي هو من ثقافة المجتمعات، حتى وإن غذته أو استفادت منه دول. ننتقد الدول وكأن مجتمعاتنا خالية من مشاكل تحول دون قيام مجتمع حداثي متطور.

النظرة المتخلفة للمرأة هي من صناعة ثقافة المجتمعات بالدرجة الاولى. وقتل المرأة بما يسمى بالدفاع عن الشرف من ثقافة المجتمعات وليس الدول، بل حاولت الدول منعه في العديد من البلدان العربية.

بل وهناك بلاد عربية كان الاهالي يقاوموا سعي الدولة ادخال بناتهم في المدارس!

.. تغيير أنظمة الحكم يشبه في رأيي تغيير براغي في ماكينة معطلة أصلا. والأسوأ طبعا أن البراغي الجديدة أسوأ بكثير من البراغي التي كانت موجودة. لذا لا بد من التوجه لمصادر الإعاقة. وهي تكمن في الأفكار التقليدية التي يستند بعضها الى تفسيرات دينية متزمتة ولا صلة لها بالعصر الحديث.

لذا لا بد من التصدي للثقافة المنتجة للتخلف الذي جعل بلادنا في آخر الأمم من العديد من النواحي العلمية وسواها. الدولة العربية الحديثة ارتكبت جريمة كبرى انها لم تتوجه لضرب الثقافة المنتجة للتخلف. وثقافة التخلف تتركز في ثقافة ما قبل الحداثة، التي من ابرز خصائصها ضعف التفكير المنطقي، وغياب كامل لثقافة الموضوعية، وسيطرة الفكر الأسطوري وغياب العقل العلمي، وسيادة العقلية العشائرية بكل ما يرتبط بها من سلبيات.

في نقد الفكر القومي العربي الاصولي

لم يكن من الممكن أن تصل الأوضاع العربية الى هذا المستوى من البؤس لو لم يرتكب الفكر القومي العربي أخطاء قاتلة ندفع ثمنها الآن، كما أثبت الاحداث فيما بعد، والتي تمثلت بعدم اكتراث المفكرين القوميين العرب بتراث عصر النهضة الذي شكل حركة تنويرية واسعة، بل ثورة فعلية، عن طريق الفكر وعن طريق مقاربة المشكلات التي تم تلخيصها بلغة تلك الأيام بالاتحاد والترقي (لا نقصد هنا الجمعية العثمانية التي تحمل هذا الاسم).

فقد حمل عصر النهضة افكارا هامة وجديدة على العرب مثل حرية المواطن والوطن وتحرير الدين من الخرافات وتحرير المرأة وأهمية التعليم للجميع.

لقد كان عصر النهضة رغم الملاحظات التي أبديت نحوه، وهي ملاحظات جديرة بالاهتمام كملاحظة جلال صادق العظم حول عدم اكتماله ونضوجه ليصبح مشروعا، أو مشاريع سياسية الأمر الذي أبقاه في دائرة الفكر النظري الصرف. ونحن نعرف من خلال تاريخ الفكر الإنساني أنه لا يمكن الحكم على فكرة سياسية إلا عبر تطبيقاتها السياسية وهنا فقط يمكن معرفة قوتها وكذلك عيوبها. لأن التاريخ البشري وتاريخ العلوم بما فيها العلوم الإنسانية كان ولم يزل قائما على نظرية التجربة والخطأ.

أهمية فكر عصر النهضة من وجهة نظري انه شكل أول محاولة عربية في العصر الحديث لأجل القيام بقطيعة مع الماضي. والقطيعة مع الماضي في هذه الحالة هي القطيعة مع كل تراث وثقافة الدولة السلطانية. ومفهوم القطيعة تعلمناه من الفلسفة الفرنسية، وخاصة من بشلار الذي عارض الفكرة السائدة حول تطور المجتمعات مثل ورق الشجر التي تنمو شيئا فشيئا بل عبر القطيعة مع الماضي.

والأمر الآخر المرتبط بالأول، هو أن أسئلة عصر النهضة قد تعدت المستوى السطحي من الأمور، بل تجاوزتها مثيرة أسئلة جوهرية حول أسس وبنية المجتمع من تعليم الى ادارة الى الحريات الى موضوع المرأة.. الخ.

ونحن نعرف من التاريخ أن الشعوب المهزومة تسعى عادة لمعرفة سبب هزائمها. وكلما كانت الاسئلة توغل في العمق كلما ساعد ذلك في تلمس الشعوب لطريقها نحو الخروج من الهزيمة.

والذي حصل أن الفكر القومي لم يهتم، وأحيانا نظر بازدراء الى التراث العقلاني والتنويري لعصر النهضة، وراح يركز اهتمامه على تجاوز التبعية للغرب، وهو لا يلام على تركيزه على التحرر من التبعية بالطبع، لان ذلك كان أهم تحديات تلك المرحلة. لكنه ارتكب خطيئة قاتلة عندما تم التركيز على حرية الدولة من التبعية للأجنبي بدون الإلتفات الى حرية شعب الدولة، تماما مثل ربان السفينة الذي يضع اولوياته في نجاة السفينة لدى تعرضها للأمواج العاتية لكنه يستمر في سوء معاملة سكان السفينة. فقد أكد التاريخ بصورة مؤكدة انه لا فصل بين حرية الوطن وحريه المواطن وأي محاولة للفصل بينهما هو ضرب

من الوهم. ولا يمكن الادعاء أن البلد حرا إن لم يكن افرادها غير احرار.

لا شك أنه توجد عوامل قد تكون خارج إرادة الفكر القومي نسبيا، مثل قيام دولة صهيونية في قلب المشرق العربي وما تبعها من انتشار لثقافة الحرب والتصدي لإسرائيل خاصة في المشرق العربي. كل ذلك قد يكون قد لعب دورا ما في تقوية فكر الأيديولوجية الواحدة التي شكلت دور الحاضنة للفكر الإستبدادي العسكريتاري الذي لعب دورا في اجهاض عمليات تطور حياة مدنية ومجتمع مدني في المنطقة العربية. ولكن هذا السبب كان يمكن تحويله الى مكمن قوة لو كان للدولة رؤى وخيارات سياسية غير التي انتهجتها لأن الدولة الحرة بشعب حر قادرة على التصدى للعدوان أكثر من دولة حرة بشعب غير حر.

وهكذا تمت صياغة البلاد العربية الرئيسية وفق مفهوم الدولة الأمنية ذات الطابع الشمولي الأمر الذي لم يؤد فقط، كما أسلفت الى تعطيل نمو المجتمع المدني، بل أدى بطريقة غير مباشرة الى تقوية الفكر الأيديولوجي الأصولي الديني الذي جاء محاكيا الى حد ما (الاصولية القومية) وإن بصبغة دينية، فالواقع السياسي والثقافي العام كان البيئة الحاضنة التي تربى فيها الجميع.

لذا ليس من المستغرب أن القوى الأساسية التي ظلت تحافظ على قوتها نسبيا حتى في ظل قمع دول القومية العربية كانت القوى الدينية التي سرعان ما برزت بقوة في احداث الربيع العربي.

خلال هذه المرحلة ولد بضعة اجيال من العرب في مجتمعات مشوهة تعيش في إطار ثنائية الإستبداد والنفاق، وهما صفتان متلازمتان وتؤديان عادة الى اضعاف ثقة المواطن بنفسه. لأن حياته كلها باتت مرتبطة بالخوف من السلطات، الأمر الذي همش حياة غالبية المواطنين وشجع وقوى ثقافة الفساد والنفاق والجبن في التصدي للواقع.

أثّر ذلك على عموم حركة المجتمع وعلى مستوى التقدم والتطور والعمران لأن حرية المواطن ليست مسألة هامشية كما ظنت هذه الأنظمة مسوغة ذلك بسلم اولوياتها.

فقد أكدت أكثر من دراسة حديثة في اوروبا جرت مؤخرا عن علاقة الحرية بالابداع وبالسعادة وبالصحة النفسية والجسدية للانسان.

ففي دراسة صادرة على لاتحاد الأوروبي للعام 2012 تم قياس (سعادة) الافراد أي رضاهم عن حياتهم ومعيشتهم. ومن الواضح أن هناك ربطا قويا ما بين العدالة الإجتماعية والحرية والاقتصاد، أي باختصار شعور المواطن بالأمن على مختلف الاصعدة. وقد لاحظت مثلا انخفاض الشعور بالرضا في البلاد الأوروبية الشرقية التي انضمت في الاعوام الأخيرة للاتحاد الأوروبي أي الحديثة العهد على الديمقراطية ونظام الرعاية الإجتماعية..

وفي تقرير صدر عن الامم المتحدة عام 2013 شمل 150 بلدا تصدرت الدانمارك والنرويج وسويسرا وهولندا والسويد الدول الاكثر سعادة في العالم. وقد تم قياس عوامل عدة مثل الميزانية الحقيقية (الميزانية العامة التي تنشر عادة لا تعكس

الحقيقة). العمر المتوقع للحياة، ورضا الناس عن حياتهم، من حريات وعدالة وانواع الرعاية على انواعها للطفل والشيخوخة والمرضى، وانعدام أو قلة وجود الفساد... الخ.

والدرس الثمين الذي لم تتعلمه قوى تيار القومية العربية على أنواعها أن الحرية أمر يعادل الفطرة الطبيعية في الإنسان: فالمعلم الحر يُدرس أفضل، والبناء الحر يُعمر بيوتا وجسورا أقوى من الفاقد لحريته. والجندي الحر يُدافع عن الأوطان أفضل والفلاح الحر يُنتج قمحا افضل!

في نقد ثقافة الإنتقام
في الثورة العربية!

ما حصل في ليبيا من اغتيال للقذافي وابنه يطرح أسئلة عديدة سأركز هنا على بما يمكن تسميته بالأخلاق السياسية للمشروع الثوري هي مسألة هامة جدا على مستوى بناء الدولة العتيدة المزمع انشاؤها مكان النظام القديم.

فعندما تبدأ المجموعات التي قاتلت النظام السابق باستخدام ذات أسلحة النظام الذي قاتلت لتغييره فانه من الصعب عدم التساؤل حول كيف يكمن تسمية الأمر ثورة إذا كانت هذه الثورة لم تقدم نهجا جديدا يختلف عن نهج النظام الذي تمت محاربته باسم الحرية والعدالة والكرامة الإنسانية.

وعندما نرى طوابير الناس يحملون الكاميرات لأجل اخذ الصور التذكارية والرقص فوق جثة رجل ميت في أحد أبشع المناظر التي رأيناها في التاريخ العربي الحديث، لا يمكن للمرء الا ان يتساءل إن كان الذي يحصل ثورة ضد نظام العائلة أم انتقام عشائري وانفلات غرائزي تحت مسمى الثورة.

من الممكن أن يتفهم المرء وإن كان لا يوافق قيام شخص ما بالإنتقام لمقتل عزيز عليه، لكن انتقام الثورات لا يكون إلا عبر تقديمها نموذجا أفضل سواء على مستوى الخطاب السياسي أو على مستوى السلوك السياسي. وإذا ما فشلت الثورة بذلك فانها يمكن أن تسمى بأي شيء لكن ليس بثورة..

أهمية الثورة انها لا تقدم فقط خطابا سياسيا وايديولوجيا مختلفا عن النظام السابق وحسب، الأهم أنها تقوم بممارسات على الأرض تقدم فيها المثل والدليل والرهان القاطع أنها تمثل نهجا جديدا يختلف عن نهج النظام الذي قاتلته. فإذا كان هذا النظام يقتل الأبرياء بلا محاكمة فان الثورة التي يفترض انها تشكل مشروع الدولة القادمة لا تلجأ لذات الأساليب التي قامت لمحاربتها وإلا ستصبح مشروعية الثورة موضع تساؤل.

رأينا ذلك في ثورة العام 58 في العراق عندما قام بعض ضباط الجيش بانقلابهم على النظام الملكي الذي بنى العراق الحديث ورأينا كيف قُتل كافة أفراد الأسرة الحاكمة بوحشية مقززة ورأينا كيف تم جر جثة نوري السعيد بالسيارة والدوران بها في بغداد.

وهذه الجرائم البشعة سميت ثورة ضد العهد الملكي الفاسد، ثم بدأ الثوار يقتلون بعضم البعض في ثورات أخرى لم يكن نظام صدام حسين بكل العنف الذي مارسه سوى حلقة من حلقات تعميم ثقافة الإنتقام.

على كل حال لم يكن القذافي ذلك الطاغية كما يتم تصوره الآن من قبل جماعات الاخوان المسلمون الذين لهم اليد الطولى في الثورة. كان القذافي باعتراف كل الذين تابعوا سياسته خليطا من ثقافة الفكر الشمولي للحزب الواحد أو الفرد الواحد والعائلة الواحدة وهو النهج الذي مارسه أتباع النهج القومي العربي وإن بصيغ مختلفة في مصر والعراق وسوريا واليمن. كما كان رجلا غريب الأطوار يعتقد أنه المخلص الجديد للعالم.

هذا القول ليس لتبرير سلوكه السياسي الذي اختزل ليبيا بشخصه لفترة طويلة، لكن لكي لا نظل أسرى بالمطلق لبروبوغندا فضائيات الدول التي تجمع ما بين ثقافة سياسية أكثر تخلفا من الأنظمة التي تنتقدها وسائل إعلامها وإعلام قوى وحديث.

لقد أساءت الثورة لاهدافها وألحقت أذى يصعب تقديره الآن بمشروع بناء الدولة الليبية الحديثة. فمن خلال ما عرفناه من تجارب شعوب أخرى فان الخطر الأكبر يكمن عندما تسيطر ثقافة الغرائز على مشروع التغيير. عندها لا تؤسس الثورة مشروعا خلاصيا للمجتمع بقدر ما تصبح على الأرجح تطبيقا للنظرية الخلدونية (ابن خلدون) في السلطة السياسية حيث تظل الدولة حبيسة العصبية الأقوى التي ما أن تضعف حتى تحل مكانها عصبية تمارس ذات النهج وإن بمسميات أخرى، وهذا بطبيعة الحال قد يقود المجتمع نحو أي شيء لكن ليس نحو الديمقراطية والعدالة الإجتماعية.

في نقد ثقافة أين أنت يا صلاح الدين

هذا الأمر بات في صلب الثقافة الفلسطينية والعربية منذ زمن بعيد. وهذه الفكرة وليدة التاريخ والعاطفة والاحساس بالضعف والتوقعات.

لأجل فهم اي فكرة كما يقول تروتسكي لا بد من معرفة ظروف تكونها. لان كل فكرة في النهاية لها تاريخ ميلاد، حتى وان لم نستطع دوما معرفة ذلك بدقة.

ولدى معرفتنا للفكرة عندما كانت طازجة أو جديدة كما يقول محمد اركون يصبح من الاسهل فهم ظروف تشكلها وفعلها في التاريخ. وهذه الفكرة ولدت في مرحلة اجتياح قوات الممالك والاقطاع الاوروبي بلادنا في مرحلة ما يعرف بالحروب الصليبية.

ولما كان التاريخ الرسمي والديني يركز على انجازات الدولة، تم تكريس فكرة (الإنقاذ من الخارج!) وفكرة صلاح الدين في الخيال الشعبي وهو امر يخدم أيديولوجية الدولة الرسمية (ولاسباب تاريخية عديدة!).

لكن يمكن حسب رأيي نقد هذه الفكرة لانها استبعدت التاريخ الشعبي، وتاريخ صمود الاهالي. فصلاح الدين جاء بعد حوالي مائة عام من الاحتلال الاستيطاني الاوروبي في بلاد الشام. وليس من المعقول ولا الطبيعي أن الناس كانوا راضخين تماما للأمر الواقع وينتظرون من يأتي لتحريرهم.

لقد وُجدت مقاومات شعبية صغيرة هنا وهناك، اتخذت وسائل عديدة منها الهجوم على قوافل القوات المحتلة... الخ من اعمال المقاومة، بل برزت هناك اسماء في المقاومة مثل عيسى العوام على سبيل المثال.

وهذه المقاومة لعبت دورا في عدم تثبيت شرعية الاحتلال، لان المقاومة الشعبية، ايا كان مستواها، لها فعل نفسي مهم على مستويين:

أولاً، تعزيز الثقة بالذات الجمعية وهو أمر معنوي مهم جداً، كذلك تأثيرها على الاحتلال لانها تذكره دوماً بأنه احتلال، ولا يملك شرعية حتى وإن امتلك القوة.

لكن غياب التاريخ الشعبي غيب هذه المقاومة، وتم التركيز كله على صلاح الدين. صلاح الدين قام بانجاز كبير أنه حرر القدس وبعض المدن، ولكن ظلت القوات المحتلة بعد صلاح الدين أكثر من 90 عاماً على الشريط الساحلي الممتد من عكا الى مدينة صور.

حسب اعتقادي لعبت هذه الفكرة دورا سلبيا خاصة في مراحل سابقة من التاريخ الفلسطيني. صحيح أن الشعب الفلسطيني حمل السلاح، وقاوم بامكانياته المحدودة احتلالين معا: الإنكليز والصهاينة. لكن فكرة الإنقاذ من الخارج ظلت فكرة سائدة على مستوى الخيال الشعبي. الأمر الذي اضعف المقاومة موضوعياً حسب اعتقادي.

ولأسباب يطول شرحها، لها علاقة بالإنتماء والتاريخ والعاطفة والتوقعات من البيئة المحيطة التي يعتبرها الفلسطينيون امتدادا لهم، ولا يعني هذا طبعا تغييب أو تجاهل

البعد القومي تماماً من الصراع لكن الهدف معرفة الحقيقة من الوهم!

لكن هذا النمط من الخيال الشعبي أضعف فكرة الوطنية الفلسطينية في مراحل الصراع خاصة المراحل الاولى، كما أضعف الى حد ما من فكرة الاعتماد على النفس الأمر الذي أضعف المقاومة وعزز من الثقافة الغيبية التي تتمثل في فكره بانتظار صلاح الدين!

في نقد (أسطورة)
أصول العائلات الفلسطينية!

في ظل طبيعة الصراع مع حركة الاستيطان اليهودي الصهيوني الدولي لا بد لنا من الإنتباه لكل التفاصيل. فهذا صراع يشمل كل شيء بدءا من التاريخ حتى الجغرافيا الى الثقافة. أي انه صراع شامل متعدد الأبعاد. والجهد المعرفي يجب أن يكون في مقدمة من يتصدى للغزاة. وعليه يجب اغلاق أي منفذ يتسلل اليه المحتل..

اهتمامي بهذا الأمر كان من أكثر من عشرين عاما عندما قال لي صهيوني اثناء مناظرة "عد الى الجزيرة العربية التي جئتم منها!".

على كل حال الذي الاحظه اثناء قراءتي لبعض ما يكتبه الفلسطينيون حول عائلاتهم مفارقة من الصعب قبولها، ولا بد أن تخضع للمسائله والتدقيق. إذ كل ما قرأته حتى الآن من كتابات حول أصول العائلات الفلسطينية يُعاد في الاغلب الى الجزيرة العربية. ومن ناحية علمية من الصعوبة قبوله كحقيقة تاريخية ولذا يتطلب الفحص والتدقيق بل والدحض. لان هناك بعض الاساطير التي تكتسب مع الوقت شرعية ما، وتصبح حقائق مقبولة.

السؤال أو الافتراض الاول، إنه إن كان ما قيل صحيحا، فمعنى هذا أن فلسطين كانت فارغة من السكان قبل مجيىء

العرب. وهذا أمر تكذبه حقائق التاريخ بصورة لا تقبل الجدل. ومدن فلسطين كلها كانت مأهولة بالسكان، وأسماء المدن والقرى موجودة قبل مجيىء العرب. والدليل أن الاسماء كلها مشتقة إما من الكنعانية أو الآرامية السريانية. الاستثناء الوحيد ربما كان مدينه الرملة التي اسست في زمن العرب أما القرى التي تحمل اسما عربيا فهي قليله جدا!

إذن، كيف نفسر أن جميع اشجار العائلات الفلسطينية (ممن أطلعت عليها!) تعيد نسبها الى الجزيرة العربية؟ هذا سؤال ساسعى للاجابه عليه لاحقا؟

الأمر الثاني، هو الافتراض أن جزيرة العرب كانت مثل (الصين الشعبية!) بعدد السكان، وتمكنت من التفوق البشري بسبب العدد، وهذا أيضا أمر تكذبه حقائق التاريخ. لان العدد التقريبي للجزيرة العربية كان حوالي نصف مليون شخص في زمن الفتوحات الاولى. وهذا أمر يمكن تقديره من خلال عدد القوات العسكرية العربية المشاركة في المعارك. لكن حتى وان افترضنا أن العدد كان مليونا واكثر قليلا، فكم ستكون نسبه العرب بين من غادر الجزيرة الى رقعة جغرافية لا تقل عن 7 مليون كيلومتر، تشمل العراق وبلاد الشام ومصر والمغرب الكبير؟ هذا عدا عن الاعداد الصغيرة التي ذهبت الى بلاد أبعد مثل افريقيا والهند واسيا!

التمدد العربي كان سهلا نسبيا لأسباب يطول شرحها، لكن من أهمها، وجود عربي في بلاد الشام قبل الفتح العربي من الغساسنة وسواهم، وثانيا القرابة اللغوية بين اللغة العربية واللغة السريانية التي سادت فلسطين وعموم بلاد الشام (حفيدة اللغة

الكنعانية). وأعتقد ان الدراسات التاريخية فيما يتعلق باندماج العرب في البلاد الجديدة قليلة جدا لذات الاسباب التي اوردها هنا. لكن هناك تعبير ذات دلالة كان يستخدمه اهل القرى في فلسطين حيث يصفوا البدوي بالعربي، تمييزا عنهم أي عن الفلاحين أهل البلاد الاصليين.

ولذا من وجهه نظري فان العنصر العربي لم يتعد حوالي 5 الى 10 بالمائة في حده الاقصى. اما الغالبية من أهل البلاد فهم مواطنون اصليون، لم ياتوا من الخارج. (وأنا لا ادخل هنا في موضوع النظريات العرقية لان لي فيها رأيا، وهو خارج سياق الموضوع. لكن أهمية الموضوع تأتي لاننا نخوض كفاحا لاسترداد بلادنا وعلينا استخدام كل الاسلحة الفكرية لأجل ذلك).

وقبل بضعة أعوام أجرت الجامعة العبرية في منطقة فلسطينية بجوار القدس دراسة تستند الى فحص الـ"د.ن.أي". فوجدت أن سكان هذه المنطقة كانوا هناك منذ الالاف السنين. وهو أمر لا يفاجئني أبدا. وأنا على شبه يقين أنه لو فحص كل سكان فلسطين عن طريق الـ"د.ن.أي"، لكانت نسبة السكان الاصلين لا تقل عن 80 الى 90 بالمائة.

أعتقد أن من أهم أسباب أن الفلسطينيين يميلون الى ارجاع اصولهم الى الجزيرة العربية له علاقة (بالتكيف!) مع الظروف خاصة بعد أن سيطر العرب على البلاد، وصار من الاسهل للمرء الادعاء أن أصله من جزيرة العرب، وبات هذه الأمر مع الزمن من (الحقائق المتوارثة!). وهذا موضوع معروف جدا في الإنثروبولوجيا الثقافية لانه حصل في مناطق عدة.

أنا هنا لا أريد الدخول في نقاش واسع حول الموضوع، لانه معقد ويحتاج لاكثر من إضاءة. لكن يجب أن لا أخفى إنزعاجي من هذا الأمر، خاصه عندما أسمع مسوؤلا اسرائيليا يقول، إن اردتم حق العودة فطبقوه، الذي اسمه الكردب يعود الى بلاد الاكراد، والذي اسمه المصري يعود الى مصر الخ. طبعا هذا كلام عديم القيمة من الناحيه العلمية، واكثر من ذلك ياتي من محتل جاء لبلادنا من وراء البحار، وهو آخر من يحق له الكلام في هذا الموضوع، ولا يوجد عنده ادنى فكرة عن طبيعه التداخل الحضاري على مستوى الاقليم.

لكن من الضروري لنا ونحن نخوض حرب استرداد فلسطين (هذا هو الاسم الأدق حسب رأيي!) أن ننبته الى كل ما يقال. صحيح اننا صرنا عربا ونعتز بذلك، وان الثقافة العربية صارت الثقافه التي صهرتنا جميعا وباتت ثقافة نمتلكها ونساهم فيها ونحن منها، لكن أيضا من المهم أن لا نعطي محتلي بلادنا اسلحة يحاربوننا بها ومسألة الإنتماء والأصول في مقدمتها.

في نقد الفكرة التي تزعم وجود علاقة بين الأنظمة الديكتاتورية والاصولية الدينية!

بداية دعني اختصر في هذه الجملة وجهة نظري. الظاهرة الأصولية ظاهرة معقدة جدا ومرتبطة بعدد من العوامل السياسية والثقافية والاقتصادية... الخ، واختصارها بعامل واحد هو موقف أيديولوجي وانتقائي بامتياز.

وهذه الإضاءة مكرسة للرد على وجهة النظر السائدة هذه الأيام والقائلة إن النظم الديكتاتورية تخلق هذه الظاهرة التي تأتي كما يقال كرد فعل.

أولا، أنا لا أظن أنه يوجد في بلادنا أنظمة ديكتاتورية بالمعنى الكلاسيكي. ما اعتقده انه يوجد أنظمة متخلفة وهي عبارة عن خليط غريب عجيب من حداثة شكلية أي حداثة قشرة مع جرعات علمانية وخليط عائلي وعشائري وديني وطائفي احيانا. بل اضيف انه لم يتم حتى الآن بناء دول حديثة بهذا المعنى.

والنظام الديكتاتوري الحديث يملك مقومات دولة حديثة لم توجد في المنطقة العربية. الأخطر أن هذه الأنظمة لأسباب شعبوية، لم تضعف الثقافة الشعبية القابلة للأصولية الدينية عبر علمنة حقيقية للمجتمع. وهذه هي المصيبة الكبرى. ولذا قلت لدى مشاهدتي طريقة قتل القذافي وتدمير تمثال أبو العلاء

المعري إن التغيير الذي يحصل أسوأ ألف مرة من الواقع الحالي.

مصطلح الأصولية بدأ استخدامه في امريكا على المجموعات المسيحية البروتستانتية الأصولية. بعد ذلك تم تعميم الكلمة على الأصوليات في أديان أخرى. الأصولية البروتستانية وولدت في مجتمع ديمقراطي وبلد ذي موارد ضخمة، كما أن الأصولية الهندوسية وجدت في مجتمع ديمقراطي، والأصولية اليهودية موجودة في مجتمع ديمقراطي (لليهود). طبعا هناك فروقات عدة بين الأصوليات المختلفة المسيحية والمسلمة (السنية والشيعية) والهندوسية واليهودية لكن الرابط الوحيد بينها، هي أنها تعتقد أنها تتبع في حياتها كل ما ورد في الكتاب المقدس لهذه الجماعة أو تلك.

نحن طبعا لا نناقش نزعات العنف ومستوياتها وهذه أمور لها ارتباطات أيديولوجية كما أنها مرتبطة بالصراع السياسي. ولها مكان آخر في النقاش.

إذن ظاهرة الأصولية لا علاقة لها من حيث المبدأ بالنظام، إن كان ديمقراطيا أم لا، بدون أن أنفي تأثير النظام السياسي على ثقافة المجتمع. وأهم ما يميز الأصوليين هو نزعة احتكار الحقيقة، والفهم الحرفي للدين. أما الأصوليات الإسلامية فقد ظهرت عقب حل الدولة العثمانية بشكل رسمي واعلان الجمهورية التركية الحديثة (1923). لذا ليس صدفة أن تم تأسيس جماعة الإخوان المسلمين جاء في تلك الفتره المضطربة 1928 حيث فقد المسلمون لاول مرة في تاريخهم الدولة التي كانت تعبر عنهم (الحقيقة أنهم فقدوا ذلك من قبل بكثير لكن ظل

هناك شرعية شكلية للدولة العباسية ظلت معترفا بها حتى عصر المماليك). كما أن تأسيس حزب الإخوان المسلمين حصل في المرحلة الليبرالية في مصر، وليس في زمن الديكتاتورية كما يعتقد هؤلاء. كما تصادم الإخوان مع النظام الليبرالي مثلما تصادموا مع عبد الناصر.

وهو ما يعني أنه لا توجد صلة فعلية بين الأنظمة الدكتاتورية وبين الأصولية الدينية.

في نقد تجربة الثورة الفرنسية
تجربة الثورة الفرنسية ليست من المقدسات

اختياري الحديث عن غابريل ريكويتي يعود لسبب واضح، ألا وهو القاء ضوء على تجربته إنطلاقا من واقعنا العربي الحالي.

وانا أعتقد أن مهمتنا كمثقفين هي أن نتفاعل مع قضايانا خاصة في المراحل التاريخية الصعبة التي نمر فيها، والتي بات يسودها العنف الأعمى والتحريض والتعصب وتسييس الطوائف ووضعها في حرب باردة أو ساخنة في مواجهة بعضها.

ولقد سعيت في العديد من المقالات والمحاضرات أن أنبه الى ضرورة عدم الوقوع في النمطيات الفكرية والسياسية الجاهزة لأن بلادنا باتت بحق تتعرض لتحديات قد لا تكون مسبوقة في تاريخنا المعاصر. فالتطرف يزداد ومنطق العنف يزداد يوما بعد يوم مهددا نسيج مجتمعاتنا أكثر بكثير من المضي بها الى ما نسعى اليه من حرية وعدالة وتقدم.

ومن أهم ملامح هده المرحلة حسب رأيي هو الإنتقال من مرحلة الإسلام السياسي العام الى الإسلام السياسي الطائفي. بحيث باتت الهويات الطائفية الضيقة تنافس بل وتحل مكان الهوية العامة الجامعة. الأمر الذي يؤدي تدريجيا الى تآكل دولنا ومجتمعاتنا، مؤسِسة لوعي مزيف لا يخرج عن حدود كل طائفة الأمر الذي يؤدي الى مستقبل مليء بالالغام. والحديث عن

تجربة غابرييل ريكويتي ليس من قبيل نسخ التجربة بقدر ما هو رؤية آفاق تتعدى أفكار النمطية الثنائية التي تتحكم بالتفكير العربي السائد خاصة.

تشكل مأساة الرجل من وجهة نظري مأساة لمن يسعون الى حلول سياسية عقلانية لانقاد البلاد من الخراب والدمار في أوقات تاريخية صعبة. غابرييل ريكويتي كان ثوريا وكاتبا ودبلوماسيا وصحافيا وخطيبا ورجلا يحظى بالاحترام. وكان الرجل من أنصار الملكية الدستورية متأثرا بالتجربة الديموقراطية البريطانية التي تتطورت تدريجيا عبر قرون في بريطانيا بدءاً من الماغنا كارتا 1215 وحتى العصور القربية.

كان الرجل يرى أن إنفلات الأمر بيد الغوغاء سيدمر فرنسا وعلى هذا الأساس قام بمحادثات سرية مع الملك ليقنعه بالأمر وقد فشل. تركزت افكاره وجهوده على محاربة الإستبداد من خلال تقييد سلطة الملك وفي الوقت نفسه تأمين حكومة قوية منعا للفوضى التي قد تعم البلاد. كما وقف بقوة ضد أي تدخل أجنبي معتبرا أن تغيير نظام الحكم يخص الشعب الفرنسي وحده لأجل التغيير نحو الديموقراطية والعدالة. كان من رأيه أن المضي بالثورة الى الحدود القصوى سيعرض فرنسا للدمار وايضا للتدخلات الاجنبية كما حصل فعلا لاحقا.

الخلاصة، ضاعت جهود الرجل وقد مات مبكرا ولم يسمع رأيه أحد لا من هنا ولا من هناك. وكما توقع حصل: جاء روبسبير ودانتون وبدا عصر المقصلة وسفك الدماء والقتل والاعدامات الجماعية. وسنرى لاحقا كيف جاءت الثورة

البلشفية التي تابعت مسيرة ثقافة القتل وسفك الدماء الى درجة فاقت الثورة الفرنسية بكثير.

والتاريخ قد ظلم هذا الرجل الذي سعى لانقاد فرنسا من ثقافة العنف الأعمى.

الخلاصة هي أن الثورة الفرنسية أسست لثقافة القتل وسفك الدماء في سبيل التغيير ولا ينبغي حسب رأيي النظر اليها بلا نقد وكأنها من المقدسات. أما في انكلترا فقد تم بناء الديموقراطية على مراحل طويلة وبدون (ضربة كف) والأهم أن ذلك حصل قبل الثورة الفرنسية.

حول الربيع العربي
بانتظار التغيرات الكبرى في المنطقة العربية

انتهى العالم القديم في المنطقة العربية بكل ما كان يحمله من رؤى وافكار وتعريفات وأولويات. وقد اتضح الآن أن ما حصل ويحصل هو اكبر بكثير من تغيير حكام فاشلين وفاسدين بقدر ما هي عملية تحولات كبرى تطال المجتمع بأسره.

فحتى انفجار الربيع العربي كانت الدولة العربية لم تزل في جوهرها دولة سلطانية لا تفترق في الجوهر عن الدولة المملوكية أو العثمانية الا بحداثة شكلية لم تطل سوى القشرة. انفجار الوضع كان مؤشرا على احتضار المرحلة القديمة وأن جديدا سيولد. لكن الأمر لم يكن سهلا كما ظن الكثير من المتفائلين.

إذ أنه لا يوجد ربط تلقائي بين نهاية العالم القديم وولادة عالم جديد الا بقدر جهود قوى التغيير خاصة الديموقراطية على إحداث نقلة في الثقافة الشعبية المتداولة. وهذا العمل هو الأمر الضروري الموازي لعمل التغيير السياسي والفشل فيه يعنى أن الجديد هو جديد بالمعنى الزمني للكلمة لكنه يظل يحمل كل موروثات القديم.

ففي مراحل التغييرات الكبرى يرافق ذلك انفجارات ليس من السهل ضبطها لانها انفجارات لتراكمات تاريخية امتدت لقرون. ولذا لا بد من ادراك الفصل بين نهاية المرحلة السابقة وولادة

بديل، لان البديل لا يأتى فقط من عمليه الاطاحة بالقديم فقط، بل باستكماله بمشروع حضاري بديل للسابق وهو أمر ما زال غامضا حتى الآن.

واذا كان التغيير السياسى سهلا نسبيا، فالتغيير على مستوى منظومة الفكر العامة عملية معقدة وليست سهلة أبدا. هذا إن افترضنا أن قوى التغيير الديموقراطي هي من يقود التغيير.

لكن الأمر بات معقدا إذ نرى أن بعض من يقود العمل للتغيير السياسي من الإسلامويين يملكون ثقافة سياسية ربما أكثر تخلفا من القوى المزمع تغييرها. وهذا ما يعقد عملية التغيير لانه سيرافقها حروب وصراعات بين قوى التغيير ذاتها لأجل الوصول في النهاية لاعادة صياغة هوية المجتمع وتعريف طبيعة المولود الجديد.

على أغلب الظن أن مرحلة فقدان التوازن في المنطقة العربية ستستمر لبعض الوقت. والتغيرات الكبرى المتعلقة بصياغة المجتمعات العربية نحو آفاق الحرية والديموقراطية والعدالة لن تبدأ قبل تحقيق الاهداف الثلاث الكبرى: هزيمة نهائية وحاسمة لانظمة وثقافة الإستبداد، وتراجعا وانحسارا للفكر الماضوي الديني ذي الطابع الشمولي، وتقدما حقيقيا لفكر القوى التي تسعى لصياغة مجتمعات عربية تقوم على مبادئ الحداثه ذات الطابع الديموقراطي والإنساني.

نحو مقاربه منهجة للحراك العربي!

لقد بات الربيع العربي من حقائق الواقع السياسي العربي بحيث يمكن التاكيد أن الواقع العربي قد اهتز اهتزازا لم يعد من الممكن العودة به الى الوراء. ولعل من أهم مميزات هذا الواقع في الوقت الراهن انه ما زال في المرحلة الإنتقالية التي يصحبها عادة هزات ارتدادية لا بد منها حتى انتهاء المرحلة الإنتقالية التي قد تقصر وتطول (حسب كل بلد) لكنها ستتمخض حسب تقدير الكثير من المحللين عن إقليم عربي يختلف جوهريا عن الماضي.

لقد عُلقت آمال كبيرة على ما اسماه محمد أركون بـ"سوسيولوجيا الأمل" أي التغيرات العربية الواقعة أو المأمولة الوقوع من أجل أن تنجز واقعا جوهريا يختلف عما عرف من الثقافة السياسية العربية حتى وإن اخذنا بعين الاعتبار التحفظ النسبي للقوى القومية واليسارية على العموم التي تعتبر أن الثورة التي بدأها الشباب قد خطفت من قبل الإسلاميين، الأمر الذي يؤشر لطبيعة الصراعات القادمة بين تلك القوى المتعارضة الرؤى. كل ذلك يجري في ظل ازدياد حجم التدخلات الأجنبية التي بلغت ذروتها في الأزمة السورية والتي أصبحت أزمة دولية اعادت الى الاذهان أجواء الحرب الباردة.

والقول بهذا لا يعني بطبيعة الحال أن القوى الغربية وقفت مكتوفة اليدين لأن بداية التدخل بدأ زمن الثورة التونسية التي فاجئت الجميع بما في ذلك تلك القوى. ولعل هذا ما يفسر

الارتباك النسبي للقوى الغربية في البداية. لكن مع انتشار رقعة الثورة خارج تونس بدا من الواضح استخدام القوى الغربية لسياسة التكيف مع الواقع، التي كان قوامها سياسة براجماتية تقوم على توجهين: تأييد ظاهري للثورة في البلدان التي كانت خاضعة لسياستها مثل تونس ومصر.

أي الوقوف ظاهريا مع التغيير عندما لا يعود من الممكن الوقوف ضده والعمل في الوقت نفسه على ضبطه أو تدجينه بالقدر الممكن لكي لا ينتج قوى تتصادم بالمجمل مع السياسات الغربية والصهيونية، أو التدخل مباشرة عندما يخدم مصالحها كما في الحالة الليبية. أو العمل على قمعه وضبطه والتخفيف منه وايجاد أقل الحلول ضررا بالمصالح الغربية من خلال توكيل الأنظمة الإقليمية الحليفة كما في حالتي اليمن والبحرين.

في سعينا لمقاربة منهجية لاحداث الربيع العربي يمكن أن نجتهد لتقسيمه إلى ستة حالات رئيسة. وهذه المقاربة لا تزعم أنها تغطي كل الابعاد إلا أن هدفها القاء الضوء وإن بصورة بانورامية على كل حالة التي قد تتقاسم بقدر ما وتفترق بقدر اخر مع الحالات الاخرى.

الحالة الأولى تونس ومصر:

ربما يمكن وصف نظامي تونس ومصر لما قبل الثورة بانهما نظامان يمتازان بقدر ما من الليبرالية الشكلانية اضافة الى التسلط والفساد. واستخدم هنا تعبير التسلط لكي افرق ما بين النظام الشمولي والنظام المتسلط. فالتسلط والفساد هما القاسمين المشتركين في هذين النموذجين لكن مع بعض الفوارق. فالنظام

الشمولي يحكم المجتمع بعقيدة واحدة بزعم أنها الأفضل للبلاد. أما النظام المتسلط فانه في جوهره فاسد لكنه يسمح ببعض قشور النظام الديمقراطي لأجل تنفيس الاحتقان الشعبي بسبب افتقاده على الاغلب لشرعية تاريخية مثل شرعية الحزب القائد.. الخ. ومن أهم ملامح عناصر الحراك في تونس ومصر أنه كان سلميا وسريعا جدا بتكاليف غير باهظة. ولعل السبب يكمن في ثلاثة عوامل اساسية. الأول، أن هذه الدول تحتوي على مجتمعات مدنية قوية نسبيا مقارنة بالمجتمعات العربية الاخرى. والثاني أن المؤسسة العسكرية فيهما لعبتا دورا ما في نجاح الثورة عبر موقف محايد نسبيا أو نوع من انقلاب صامت ليس من دون علم القوى الغربية على الأغلب. أما السبب الثالث، المتصل بالثاني، فيكمن في تخلي الدول الغربية الداعمة لهذين النظامين تماما كما حصل لشاه إيران قبل أربعة عقود.

الحالة الثانية: ليبيا

كانت ليبيا البلد الثالث التي اندلعت فيها الثورة على نظام العقيد معمر القذافي الذي حكم البلاد منذ انقلابه على الملك العجوز ادريس السنوسي عام 1969. وقد بدأت الثورة على حكم القذافي من مدينة بني غازي والمناطق المهمشة أو الأقل اهتماما من النظام لأسباب قبلية أو جهوية: من أهم ملامح هذه الثورة البعد العسكري الذي تميزت به الثورة الليبية على عكس الثورات السلمية السابقة. وقد بررت المعارضة اللجوء إلى السلاح منذ البداية بالعنف الذي واجهه الحراك الليبي الذي اضطره للدفاع عن نفسه. وبغض النظر عن صحة هذا التبرير

أم عدمه إلا ان التفسير السوسيو سياسيي الأكثر موضوعية يؤشر بوضوح إلى غياب المجتمع المدني الليبي وغياب ثقافة الأحزاب المعارضة بسبب سياسة التصحير الثقافية والسياسية التي اتبعها نظام العقيد طوال أكثر من أربعين عاما. وقد برز هذا جليا في بنية الثورة التي افتقدت لعنصري الوحدة والانضباط، حيث لكل مدينة ثوارها الذي يجمعهم على مستوى العقل الجمعي كراهية النظام لكن بغياب رؤى سياسية بديلة وموحدة.

وقد برز هذا التفكك بوضوح اثناء الحرب حيث لم يكن هناك سوى الحد الأدنى من التنسيق على المستوى الميداني الأمر الذي سمح ببروز صراعات من البداية، تطورت فيما بعد الى معارك عسكرية بعد نجاح الثورة. والملاحظة الثانية هي التدخل الغربي (المدفوع الثمن!) المباشر عبر العمليات الجوية الذي يجمع المراقبون انه كان حاسما في حسم الصراع لصالح الثورة. ولعل الأبرز في الحالة الليبية بروز الإسلاميين والقوى القبلية والجهوية كقوى أساسية في مقاتلة النظام على عكس التجربيتن التونسية والمصرية اللتين تميزتا ببروز عنصر الشباب المثقف في المدن الأساسية أو المدن المهمشه قبل أن تبرز القوى الإسلامية.

الحالة الثالثة: اليمن.

تشبه اليمن ليبيا لناحية قوة الإنتماءات القبلية والجهوية وكذلك تشترك معها في ضعف المجتمع المدني. فقد عاشت اليمن منذ تسلم علي عبد صالح الحكم عام 1978 في ظل نظام

ذي بنية مركزية ضعيفة نسبيا لكنه كان يستمد قوته وشرعيته من ثقافة الحزب القائد والتحالف القبائلي والقوة الأمنية. كما نجحت المعارضة في توحيد القوى المتضررة من النظام وهم كثر، من القبائل المهمشة أو المنافسة إلى الجنوب اليمني الذي تم ضمه بالقوة العام 1994، الى الحوثيين المتمردين على النظام إلى الإسلاميين والقوى القومية على مختلف مسمياتها. ورغم طول مدة الثورة اليمنية التي اندلعت من جامعة صنعاء في شباط 2011 على ايقاع سقوط نظام حسني مبارك في مصر واستمرت أكثر من عام، إلا أن الخسائر البشرية اليمنية ليست بحجم ليبيا لكنها في الوقت عينه ليست ضئيلة مثل مصر وتونس.

أما عن التدخلات الخارجية فمن الواضح أن الدول الغربية أوكلت مهمة معالجة الملف اليمني للسعودية التي ساهمت بحل (لا يموت الذئب ولا يفني الغنم). الأمر الذي ترجم سياسيا إلى تفاهم مع المعارضة على اجبار على صالح على التنازل عن منصب الرئاسة لنائبه.

الحالة الرابعة: البحرين.

تختلف البحرين عن سائر دول الخليج بثلاثة عوامل أساسية كان لها التأثير المباشر على الحراك الشعبي هناك.

العامل الأول، ان البحرين دولة ليست نفطية وإن كانت تستفيد من عائدات النفط عبر التكرير والخدمات المرتبطة بالنفط. العامل الثاني، أن البحرين كانت تسمح بقدر ما من الحريات العامة الأمر الذي جعل منها القاعدة الأساسية تاريخيا

للقوى القومية واليسارية في منطقة الخليج. العامل الثالث، أن غالبية سكانها من العرب الشيعة الأمر الذي جعل حراكها الشعبي متهما من السعودية بالتعامل أو الارتباط مع إيران التي تدخل في صراع مفتوح مع دول الخليج. وكان من نتائج هذا الاتهام أن الحركة البحرينية حوصرت إعلاميا خاصة من القنوات الخليجية على عكس التغطية المكثفة لما حصل في المناطق العربية الأخرى خاصة في سوريا الآن حيث علامات الاستفهام تطرح حول دور هذه القنوات التي باتت موضوعيتها ومهنيتها موقع تساؤل.

وعلى الرغم من أن شعار الحراك البحريني الأساسي ظل دون مطلب إسقاط النظام إلا أن حساسية الحراك أنه مجاور للسعودية القلقة من امتداد الحراك الى أراضيها. وهي التي تعاني وإن بدرجة محدودة حالات تحركات شعبية مقلقة للنظام تجري بين الحين والآخر. كانت النتيجة ارسال قوات دعم خليجية لنظام البحرين بمباركة أمريكية على الأغلب بهدف اخماد الحراك البحريني الذي تراجع بالفعل أو بات في وضعية نار تحت الرماد.

الحالة الخامسة المغرب وعمان.

شهدت هاتين التجربتين نوعا من المصالحة ما بين النظام السياسي والمعارضة على أساس تقديم بعض التنازلات من قبل النظامين الحاكمين. وتكمن أهمية هذه الحالة المزدوجة أنها تعبر عن إدراك النظامين الملكيين الحاكمين في هذين البلدين لخطورة امتداد الحريق اليهما فبادر كل منهما لخطوات من منطلق

الوقائية السياسية. ولعل هذه التنازلات كانت الأكثر وضوحا في الحالة المغربية. فقد قلص الملك بعضا من صلاحياته للحكومة ونجح حزب العدالة والتنمية في أول انتخابات حرة. وشكل أول حكومة إسلامية في المغرب التي اعلنت أن محاربة الفساد سيكون أحد أهدافها. لكنها اعلنت أيضا أنه يجب عدم التوقع من الحكومة القيام بمعجزة لازالة ميراث الفساد الموجود في البلاد منذ الاستقلال عن فرنسا العام 1956. ويعتبر أحد كوادر هذا الحزب أن حل (الكل رابح) كان الحل الأمثل لأن البديل كان من الممكن أن يكون صراعا دمويا.

وهناك من قد يضيف أن الأردن يتجه رويدا رويدا الى نموذج الحل الوسط أو ما يمكن تسميه بالنموذج المغربي لكن من شبه المؤكد أن الحراك في الأردن سيتوقف الى حد ما على ما قد يحصل في سوريا.

الحالة السادسة: سوريا

ربما تكون الحالة السورية الأكثر تعقيدا والحالة الأكثر تازما في الوقت الحاضر.

فسوريا هي الدولة العربية الوحيدة التي لم تزل تحكم من حزب قومي ولد في أربعينات القرن الماضي ليعبر عن الروح العربية التي خاضت في القرن العشرين حروبا ضد الاحتلال العثماني والاستعمار الغربي والحركة الصهيونية التي نجحت في استيطان فلسطين.

كما أن سوريا الجغرافية المنطقة العربية الوحيدة الذي تم تقسيمها الى أربعة أجزاء عام 1916 ومن ثم تقطيع أجزاء منها

في الشمال لصالح الأتراك عام 1939 والجنوب لصالح الصهاينة عام 1948.

كل ذلك لا بد أنه ترك على الأغلب آثارا سوسيو إجتماعية واقتصاد سياسية على المجتمع السوري ليجعل منه مجتمعا قلقا يفتقد الى الاستقرار خاصة منذ تأسيس الدولة الصهيونية في فلسطين الأمر الذي يفسر ربما كثرة الإنقلابات العسكرية التي حدثت في سوريا. كما يفسر ربما الحاجة السورية الى فكر سياسي جمعي عابر للثقافات المحلية لتوحيد البلاد المتعددة الثقافات والأعراق والمذاهب.

فقد جاء الحراك السوري على ايقاع الربيع العربي وكان من الممكن للنظام أن يستفيد مما جرى للبدء بحملة إصلاح شاملة كان من الممكن لها أن توفر الكثير من الدماء التي أريقت في سوريا. ولعل أحد أخطاء النظام في سوريا أنه أعتمد كليا على شرعيته كبلد مقاوم للصهيونية وهذه الشرعية بدأت تضعف في ظل انكفاء حزب البعث عن لعب دور طليعي كما يفترض بل وبات الإنتماء إليه مدخلا للحصول على مكاسب مادية.

وكذلك في ظل انهيار الطبقة الوسطى بسبب الفساد وسوء الادارة الأمر الذي أدى خاصة بعد موجة الجفاف التي طالت مناطق خصبة في سوريا ونزوح فلاحيها للمدن المكتظة أصلا الى افقار قطاعات واسعة في المجتمع السوري.

لقد اتيحت لحزب البعث في سوريا فرصه ذهبية للتعلم مما جرى من المصير المحزن لحزب البعث في العراق ولكنه لم يتعلم الدرس الثمين أن الحرية هي عامل أساسي لا غنى عنه لأجل بناء الأوطان والدفاع عنها في زمن العدوان الخارجي.

أما في الوقت الحاضر من الواضح أن عوامل عديدة تتداخل مع الأزمة السورية: الحراك الشعبي من ناحية والعودة للمسالة الشرقية التي كانت سائدة في القرن التاسع عشر والتي كان تحريض الطوائف على بعضها البعض أحد أبرز ملامحها. والدور الواضح للسعودية وقطر الذي ينطلق على الأغلب من التوجه لاضعاف إيران عبر اضعاف حليفه السوري اضف الى الصراع مع إسرائيل التي لا تقول الكثير لكن هدفها في تفتتيت الكيان السوري معلن من زمن بعيد.

ولعل المشكلة الأكبر في سوريا أن الإسلاميين الذين يشكلون الجسم الأساسي للمعارضة يفتقرون لخطاب سياسي جامع لكافة اطياف الشعب السوري. الأمر الذي ربما يدخل سوريا في اتون صراعات قد تساهم في خلق أرضية تسمح بتقسيم البلاد، إذا لم يتم التوصل الى حل وسط يضع حدا للصراع المسلح وينقذ البلاد من مصير قاتم وهذا أمر لا وارد أنه الآن على الأقل.

الخلاصة التي يمكن استنتاجها هو أن مرحلة هامة من مراحل التاريخ قد بدأت في المنطقة العربية. وإذا كنت من المتحفظين الى وصول تيارات إسلامية للسلطة في بعض البلاد العربية. إلا أن وصول هذه القوى للسلطة بات أمرا واقعا في بعض البلاد العربية وهذا يجب أن يكون حافزا للقوى الديمقراطية لكي تتوحد للنضال من أجل مجتمع ديمقراطي للجميع. وكذلك من فوائد وصول التيارات الدينة للسلطة في بعض البلاد العربية أنه سيكون امتحان حقيقي لهذه القوى التي أصبحت تعلن أن هدفها اقامة دولة مدنية لجميع المواطنين! وهذا يعني تراجعا وان نظريا عن مقولة دين ودولة في آن. ويظل في

رأي الحفاظ عن المجتمع المدني والحريات العامة أمام أي توجه ثيوقراطي التحدي الاكبر الذي ستواجهه القوى العلمانية والديمقراطية في المستقبل. وكذلك يمكن القول أن الهزات السياسية والإجتماعية لن تختف بسرعة فالإسلاميين لا يملكون تجربة في ادارة السلطة الأمر الذي سيجعلهم يديرون البلاد وفق مقولة (التجربة والخطأ) وهذا أيضا مؤشر اضافي على أن الهزات الارتدادية لن تختفي من الواقع العربي في وقت قصير.

هل المشاكل العربية واحدة لكي تستدعي نسخ (التونسة)؟

كتبت في المرة السابقة إضاءة قد لا تبدو شعبية في هذه المرحلة التي تلتهب فيها مشاعر الناس في المنطقة العربية مطالبة بالتغيير. وهو أمر مشروع تماما وبات ملحا نظرا لتفاقم الاوضاع الإجتماعية والسياسية التي باتت تهدد الأمن الإجتماعي للعديد من الاقطار العربية.

واعتقد أنه لو كانت توجد لدينا دول بالمعنى الحديث للكلمة لناحية احترام حقوق المواطن لكانت قد سقطت حكومات بمجرد أن قام شباب في مقتبل اعمارهم بحرق أنفسهم لأني لا أظن أنه توجد رسالة أقوى وأبلغ من تلك الرسالة يمكن أن تصف حالة اليأس التي وصل اليها الشباب العرب الذين باتوا يفضلون الإنتحار على الحياة في ظل انعدام آفاق المستقبل أمامهم.

ولقد سعيت في الإضاءة السابقة الى القول إنه على الرغم من وجود بعض القواسم المشتركة بين الاقطار العربية إلا أنه من الضروري الالتفات الى الفروقات الإجتماعية والسياسية لأنه من غير الممكن تجاهلها كونها العنصر الحاسم في مسألة التغيير. كما لا يمكن أيضا تجاهل حجم وتاثير التغيير في كل بلد سواء لناحية الاهتمام الدولي سواء لوجود النفط أو لموقع البلد في الصراع مع الصهاينة.

ولعل من أكثر الامور التي استرعت اهتمامي هو هذا العدد من الدعوات التي برزت في الاونة الاخيرة والداعية الى ثورات شعبية على الطريقة التونسية والتي بات تبدو كنوع من الموضة تماما مثل موضة مرحلة الإنقلابات العسكرية التي كان الإعلام الاحادي يسميها ثورات وايضا مثل موضة الإسلام هو الحل التي أزعم أن لها أنصارها حتى الآن.

الأمر الأساسي الذي يفترض أن يهمنا هو التغيير لأجل تحقيق الحياة الحرة في مجتمع تكافؤ الفرص ومجتمع العدالة الإجتماعية.

واذا كانت هذه الجملة تلخص بالفعل طموحات مجتمعاتنا فأن المهم هو تحقيقها بغض النظر الى آلية التحقيق.

فآلية التحقيق هي وسيلة وليست غاية وبالتالي فان الإندفاع نحو التركيز على الوسيلة قد لا يقود بالضرورة للنتائج المتوخاة.

هذا لا يعنى بطبيعة الحال التقليل من أهمية الثورات الشبابية التي تحصل بقدر ما أريد القول إن إعطاء وصفة واحدة لكل الأمراض مسألة لا تقود بالضرورة للعلاج. لأنه من المعروف أن العلاج المناسب يُعطى بعد تشخيص المرض تشخيصا صحيحا. والفشل في التشخيص يعني إعطاء الدواء الخاطئ الذي لن يفيد، هذا اذا لم يضر.

واذا ما انتقلنا من التعميم للتخصيص نسأل مثلا هل بلاد الخليج العربي تعاني من ذات المشاكل التي تعاني منها بلاد الشام أو بلاد المغرب أو مصر مثلا وبالتالي هل المرض واحد لكي نقول أن العلاج واحد.

وحتى داخل هذه البلاد نجد طبيعة الكفاح الفلسطيني للاستقلال يختلف عن سائر الاقطار الاخرى. وحتى الدعوات القائمة حاليا لتغيير القيادة الفلسطينة مسألة معقدة تحتاج الى اساليب تختلف عن البلدان المستقلة.

كذلك المشاكل الموجودة في بلاد الخليج تختلف عن تلك الموجودة في المناطق الاخرى. فهذه البلاد تتمتع بفضل الثورة النفطية بمستوى معيشي افضل من سائر البلاد العربية لكنها في الوقت عينه تفتقر ربما فيما عدا البحرين والكويت للثقافة السياسية الحديثة مثل الاحزاب السياسية والعمل النقابي وكل ما يتصل بها من ثقافة سياسية على الرغم من وجود نخب مثقفة كبيرة في تلك البلاد.

اما على المستوى الاستراتيجي فاهتمام العالم الغربي بتلك المنطقة اهتمام خاص بسبب الاحتياطات النفطية وقد شاه.دنا جميعا التدخل الدولي في العراق الذي لا أحد يعتقد أنه تم لنشر الديموقراطية كما تم الزعم.

كما رأينا أن العديد من القوى السياسية العراقية التي تبنت مسألة تغيير النظام السابق قامت لاحقا ببناء نظام طائفي أسوأ بكثير من النظام السابق.

والاوضاع في بلاد الشام تعاني من مشكلات تختلف عن سواها من المناطق لاسباب عديدة. أولا، هناك مسألة الهويات الفرعية القوية في تلك البلدان والتي يمكن استغلالها في حالة هبة شعبية لكي تتحول الى صراع ديني أو مذهبى بدلا من أن تكون نضالا لاجل التغيير. وكل الذين سقطوا شهداء في انتفاضة تونس يعادلوا قتلى يوم واحد من مأساة التقاتل العراقية.

وفي التاريخ الحديث امثلة اخرى. ففي العام 1840 قام فلاح ماروني من جبل لبنان باعلان الجمهورية وكان ذلك بتاثير من أفكار الثورة الفرنسية. لكن بدلا من التفاف فلاحي الجبل الدروز والموارنة حول هذا المطلب تحول الأمر الى صراع طائفي قتل فيه الالاف من الطرفين.

ولعل ما قالته مناضلة شيوعية لبنانية اثناء مظاهرة في بيروت لم تتعد الفين متظاهر للمطالبة برفع الاجور يعبر عن حالة الوضع. فقد قالت تلك المناضلة انه لو قام بالدعوى للمظاهرة زعيم طائفي لجاء نصف مليون.

وفي سوريا باتت قضية الديموقراطية والعدالة الإجتماعية من القضايا الهامة المطروحة لدى النخب السورية كما أن الرئيس السوري اعترف بضرورة التغيير. لكن سوريا تختلف عن مصر. أولا، بسبب غياب الهويات الفرعية في مصر كما في سوريا. والاهم من ذلك أن موقف النظام السوري الداعم للمقاومة في العراق ولبنان وفلسطين منحت النظام السوري مشروعية أخلاقية لا يمكن انكارها لناحية صمود مشروع المقاومة في المنطقة. وهي مشروعية يفتقد لها النظام المصري الذي وقف في الخندق المعادي للمقاومة والكل يدرك انه لو الذي يحصل في مصر كان في سوريا لراينا أمريكا ومعا ابواقها يطبلون لها ممجدين.

ولكن هذا يجب أن لا يبرر ضرورة التغيير نحو العدالة والحرية في سوريا لانه ثبت بما لا يدع مجالا للشك أن النظام السياسي المتصالح مع شعبه أقوى كثيرا في مواجهة الإمبريالية والصهيونية.

أما الموقف الاسرائيلي فقد كان وسيظل الموقف الذي عبر عنه مساعد وزير الخارجية الاسرائيلي الاسبق الذي قال عن مصر (وهو امر ينطبق باعتقادي على كافة البلاد العربية) بالنسبة لاسرائيل ليس المهم أن يكون نظام ديكتاتوري أو ديموقراطي المهم ان لا يكون معاديا لاسرائيل وانا أعتقد ان هذا هو الموقف الاستراتيجى الصهيوني.

وذات الأمر ينطبق على بلاد المغرب العربي التي وإن كانت مرتاحة الى حد ما من حدة الضغط الدولي إلا أننا نجد أن لها خصوصيتها لناحية إيجاد حل للمسالة الامازيغية التي يمكن استغلالها أيضا لاضعاف المشروع الجمعى للتغيير.

لذا فان نقدي للاصوات الداعية للتونسة كما بات يقال انها لا ترغب أن ترى الفروقات الموجودة في البلاد العربية التي لا يمكن القفز عنها. فحصول انتفاضة شعبية في بلد مثل تونس ذات الهوية الجامعة والبلد الهامشي في الصراع مع اسرائيل أمر لم يثر قلقا حقيقيا في أمريكا والغرب بل امتدح اوباما ما اسماه بشجاعة الشعب التونسي خاصة عندما أدرك ان نظام بن على يحتضر.

القلق الغربي الآن حول مصر ليس مرده الى عدم رغبة الغرب في تحسين حياة الشعب المصري على مستوى المعيشة وحقوق الإنسان. على العكس من ذلك كان هناك دوما أصوات قوية منذ زمن بوش تطالب بهذا الأمر. وكان دوما يقال إن استمرار هذا الوضع يقوى من شوكة الإسلاميين. وهو أمر لا ترغب به أمريكا وحلفاؤها. لكن الاولوية لأمريكا كانت وستظل

في تقديري مسألة موقع مصر من الصراع مع اسرائيل وهذا هو مصدر القلق الوحيد وليس سواه.

وبالعودة الى التاريخ أيضا يمكن أن نرى أن انتشار أفكار الثورة الفرنسية في سائر البلاد الاوروبية لا يعني أنه حصلت ثورة تعادل الثورة الفرنسية في كل بلد اوروبي. فالثورة الفرنسية أنهت النظام الملكي الإستبدادي واقامت نظاما جمهوريا، أما في سائر البلاد الاوروبية فقد تم التغيير نحو الديموقراطية بالحفاظ على النظام الملكي لكن بعد تحويله الى ملكية دستورية. بمعنى آخر كل بلد أوجدت اسلوبها لتحقيق الديموقراطية والعدالة الإجتماعية. أي أن الثورة الفرنسية باتت مشروعا ملهما للتغيير وليس بالضرورة للنسخ وذلك عبر تأسيس مفاهيم جديدة وجدت لها صدى في كل اوروبا التي كانت أيضا تعاني من مشاكل متقاربة.

الخلاصة في الأمر، إذا كان المبدأ هو تحقيق الديموقراطية والعدالة الإجتماعية فان التنظير باتجاه التعميم قد يعمينا على فهم الواقع كما هو لأجل العمل على تغييره وهو أمر يتطلب فهما لخصوصية كل واقع لأن الأمر يحتاج في ظني الى جهود اجيال، وثورة بضعة أيام واسابيع هي بداية مشوار طويل في التغيير بسبب تراكم المشاكل.

لذا فانا أعتقد ان الزعم بوحدة المشاكل في المنطقة العربية هو إسقاط للفكر الوحدوي النظري على واقع متعدد والأخذ بنظرية وحدة المشاكل سيصل بنا بالمنطق الى وحدة العلاج وهذا ما يتناقض مع الواقع السياسي والإجتماعي والثقافي.

أسئلة حول الثورة العربية

الثورة العربية لم تزل مستمرة حتى الآن على الرغم من مرور أعوام على اندلاعها. ومن المتوقع أن تستمر وأن تشمل أقطارا أخرى وهو أمر غير مسبوق في تاريخ المنطقة العربية منذ أن ظهر العرب على مسرح التاريخ منذ العهد الإسلامي. وهذه الثورة أنعشت الكثير من الآمال بالتقدم بعدما باتت النظرة السلبية تحكم نظرة العرب لأنفسهم بل ونظرة الآخرين لهم. على كل حال نعرف من خلال دراسة الظواهر الإجتماعية خاصة في علمي الإنثروبولوجيا والسوسيولوجيا استحالة بقاء المجتمعات على حالها التي تخضع للتغيير المتواصل. لا شك أن الثورة العربية طرحت العديد من الإشكاليات والأسئلة التي يصعب الإجابة عليها أو انها لم تبحث حتى الآن بالعمق المطلوب. وعلى رأس هذه الأسئلة هو هل من الممكن لمجتمعات الثقافة الدينية أن تنتج مجتمعات حداثة فعلية؟ ففي التجربة الأوروبية التي نعود إليها عادة للمقارنة نرى مثلا كما يلاحظ صادق جلال العظم أسبقية الفكر الليبرالي على الفكر الديمقراطي وهو الأمر الذي تم التعبير عنه في ظهور الفكر المعادي للاستبداد كما في كتابات جون لوك وتوماس هوبس في انكلترا وفولتير وروسو في فرنسا.

لذا ومهما قيل عن دور الشباب ووسائل الاتصالات الحديثة إلا أن الثورات الإجتماعية الكبرى سبقت الاتصالات الحديثة وبهذا المعنى فان تحميل الـ "فيس بوك" دورا اكبر في إشعال

الثورات أمر يحتاج لنقاش حقيقي وإن كان من غير الممكن تجاهل أهمية الاتصالات الحديثة في نقل الأخبار والأفكار.

فالثورة الفرنسية التي كانت أولى ثمار تطبيقات عصر الأنوار فقد كانت ثورة يتيمة بكل معنى الكلمة. ففي الوقت الذي كانت أوروبا كلها تخضع لملكيات مطلقة جاءت الثورة الفرنسية لتشكل نقطة تحول في تاريخ القارة الأوروبية وهذا ما يفسر انقضاض الملكيات الأوروبية كلها ضد الثورة الفرنسية. وباتت المطالبة بالحرية تعتبر في العديد من الدول الأوروبية وخاصة في بريطانيا العدو التقليدي لفرنسا نوعا من الاتصال بالعدو، الأمر الذي غذى نزعة مكارثية بريطانية قبل حوالي 300 عام من ظهور الهستيريا المكارثية في أمريكا. ولا يوجد لدينا مثال تاريخي لدور قوى الثورة المضادة خارج إطار تجربة الثورة الفرنسية سوى الثورة الروسية التي كانت أيضا تملك ريادة الثورة الفرنسية والتي توحدت القوى المحافظة في أوروبا لأجل محاربة ما أصلح على تسميته "بالشبح الشيوعي الذي يتجول في أوروبا". وإذا كنا محظوظين باننا نستطيع أن نتعلم أو نستفيد من التجارب الديمقراطية في الشرق والغرب، فقد كانت الثورة الفرنسية يتيمة بهذا المعنى وكان عليها أن تشق طريقها وحيدة ولعل هذا ما يفسر قيامها بالربط ما بين أفكارها الليبرالية التنويرية وتراث الدولة الإغريقية ذات الطابع الجمهوري الديمقراطي مترافقا مع جهود لاضعاف دور الكنيسة في الحياة العامة الأمر الذي أسس وأعاد للحياة وطور مفهوم الجمهورية وما يتبع ذلك من مبدأ المواطنة الكاملة.

بهذا المعنى قامت الثورة الفرنسية بالعودة (للسلف الصالح) الإغريقي كونه المرجعية الوحيدة الذي كان من الممكن الرجوع إليها وهو أمر شكل بهذا القدر أو ذاك مرجعية للثورة الأمريكية التي تضمنت في دستورها لأول مرة في تاريخ الكيانات السياسية الحديثة موادا تتعلق بحقوق المواطن.

وإذا كانت الثورة الفرنسية وجدت السلف الصالح للبناء عليه فهل تملك الثورة العربية مثل هذا السلف؟

لقد ساهم المرحوم محمد عابد الجابري أحد أهم مفكري العرب في العصر الحديث والذي فارق دنيانا قبل اندلاع الثورة العربية بأشهر في تعميم مفهوم السلف خارج الاطار المتعارف عليه في الثقافة العربية عندما اعتبر أن كل الأيديولوجيات تملك نوعا من السلف أو المرجعية سواء كان هذا الأمر في الفكر الليبرالي أو الشيوعي أو الإسلامي.

أما في المنطقة العربية فلا يوجد سلف صالح سوى مرحلة عصر التنوير التي شكلت أفكار نخبها نقلة هامة في الفكر العربي خاصة في كتابات الكواكبي وفرح انطون ومجمل الكتابات التي بشرت بأفكار لتجاوز مرحلة الدولة السلطانية لمرحلة دولة القانون. لكن هذه المرحلة اقتصرت على الأفكار ولم تنتقل إلى الواقع في نماذج سياسية وبهذا المعنى لم تقم نموذجا يمكن اعتباره مرجعية. ولذا هناك من يعتقد أيضا أن السلف التاريخي الصالح يكمن في تجارب الدويلات العربية كالقرامطة مثلا التي سعت لانتاج كيانات تعبر عن احتياجات الناس لكن يبدو أن هذه التجارب لم تصل لمرحلة النضج بحيث يمكن رويتها كمرجعية للثورة العربية.

ولعل هذه الإشكالية هي التي كانت وراء السؤال الذي طرحه انطوان الدويهي حول مدى امكانية مجتمعات الجماعة حيث يعلو المقدس على الدنيوي على الوصول إلى تحقيق حداثة سياسية وإجتماعية.

ومشروعية هذا السؤال تكمن في حقيقة كون المجتمعات العربية لم تزل تعيش ولاءات ما قبل الحداثة التي تشكل في رأي التنويريين العرب عقبة مهمة في طريق اختراق ديمقراطي حقيقي في المجتمعات العربية. بل هناك من يرى باستحالة تحولات ديمقراطية حقيقة في المنطقة العربية بدون مجتمع تنويري يتجاوز اطارات النخب ليتمكن من أن يقطع مع ثقافة الماضي.

وهذا ما أوضحه ماجد الشيخ بقوله باستحالة إرساء التحول باتجاه الديمقراطية بدون الحاضن الثقافي الذي يتمكن من القطيعة مع البيئة السابقة التي ولدت وافرزت وغذت ثقافة الإستبداد.

ولعل هذا الهاجس هو الذي كان وراء بعض الآراء المتحفظة على الثورة العربية مثل رأي الشاعر العراقي الشيوعي سعدي يوسف.

ولعل مشروعية هذه الهواجس ربما تكمن من القلق من امكانية تكرار نموج الخمسينيات أي استبدال نخب استبدادية سلطانية بنخب استبدادية تتبنى قشور الحداثة وتحافظ على نهج الفساد والاستبداد. لكن من وجهة نظري من الصعب مقارنة ثورات النخب العسكرية بالظروف الحالية لأسباب تحتاج لبحث آخر.

على كل حال، الدويهي مثل الكثيرين من المثقفين العرب يتساءل عن امكانية تطبيق النموذج التركي الذي بات يراه الكثيرون نموذجا قدم نوعا من التوازن بين الديني والعلماني.

فمن المعروف أن التجربة التركية وربما الماليزية باتت تشكل لدى بعض النخب العربية نماذج يمكن التعلم منها بسبب ما يعتبر أنها تمكنت من تحقيق نهوض ديمقراطي واقتصادي ونجاح معقول باستيعاب قيم الحداثة في مجتمعات تقليدية.

وايضا مهما قيل إن الثورة العربية ذات طابع عفوي اشعلها شباب اغلقت النظم الحاكمة كل أبواب الأمل لديهم ألا أنه في نهاية المطاف لا يمكن لشباب عفوي أيا كانت شجاعته وتضحياته أن يقود البلاد لمشروع الإنتقال من الإستبداد للديمقراطية بدون حامل سياسي موحد يتمكن من تحويل مشروع الثورة إلى مشروع دولة القانون والعدالة الإجتماعية.

وأهمية هذا الأمر مرتبط بقوة الأحزاب المعارضة ونجاحها في توحيد صفوفها في برنامج سياسيي ينجز اختراقا نحو الديمقراطية.

لكن يظل هناك مخاطر حصلت تقريبا في كل الثورات الا وهي، أنه ما أن ينتهي النظام القديم حتى تبدأ صراعات سياسية داخل القوى المعارضة المتعددة الاتجاهات، الأمر الذي سيقود على الأغلب الى غياب الاستقرار الذي قد يدوم لحوالي العقدين خاصة في البلدان ذات الهويات المتعددة المرشحة أكثر من غيرها لمثل هذه الصراعات. فالحقيقة التي لا يمكن تجاهلها هي أنه يوجد في مجتمعات ما قبل الثورة الكثير من الدماميل الإجتماعية التي ستنفجر وهذا سيشكل في تقديري التحدي الأكبر

لقوى التغيير وهو تحدي أكبر بكثير من التخلص من النظام القديم.

ولأسباب يعرفها الجميع لا يمكن أيضا تجاهل حجم وتأثير التدخلات الخارجية الأمريكية والأوروبية ومن وراءها الصهيونية وسعيها الاستفادة من الثورة العربية وهذا أيضا سيكون أحد تحديات المرحلة المقبلة.

إثارة هذه النقاط لا يعني أبدا عدم تأييد الثورة العربية الحالية بقدر ما هو إثارة أو إضاءة لأسئلة ليس من الممكن تجاهلها.

ويظل السؤال المحوري: إلى أين تمضي الثورة العربية؟ من الأسئلة التي يصعب الإجابة عليها خاصة على ضوء العديد من السيناريوهات الممكنة. وهي سيناريوهات تتراوح بين النجاح في اختراق ديمقراطي إلى امكانية الفشل وربما الفوضى. لكن من المؤكد أنه بات من المستحيل العودة لمرحلة ما قبل الثورة لان هذه الثورة أحدثت هزة إجتماعية ستظل تتردد على مدى جيل كامل.

وإذا ما تمكنت الثورة من أحداث اختراق باتجاه بناء مجتمعات ديمقراطية فمن المؤكد أن هذا الحدث سيعيد صياغة المنطقة العربية باتجاه مجتمعات حرة وديمقراطية الأمر الذي سيترك تأثيرا على العالم كله.

البعد الثقافي في الثورات العربية!

أهمية فكرة فرانسيس فوكوياما كما هو معروف أنه توقع أن تاريخ البشرية سينتقل باتجاه الديمقراطية بعدما بدأ نجم الأحزاب الشمولية ينطفي بعد زوال الاتحاد السوفياتي ثم المنظومة التابعة له في أوروبا الشرقية التي تبعتها الثورات البرتقالية التي أزاحت نهائيا ثقافة الإستبداد باتجاه بناء مجتمعات ديمقراطية.

صحيح أن هذا الأمر لم يتحقق تماما في أوروبا الشرقية التي غابت عنها الثقافة الديمقراطية لأكثر من نصف قرن لكن الصحيح أيضا أن هذه المجتمعات تجاوزت مرحلة الإستبداد الستاليني التي ألحقت أضرارا كبيرة بتلك المجتمعات.

عندما كتبت مقالتي المطولة العام 1994 في صحيفة الشرق الأوسط وقمت بنقد أطروحة فوكوياما كان نقدي يومها يتركز على نقطتين أساسيتين:

الأولى، أني لم أجد وقتها، ولا اليوم بالطبع، أساسا لتحفظ الرجل على المجتمعات الإسلامية التي اعتبرها مقاومة لتمدد فكرة التغيير وهو الأمر الذي أكدت الثورات العربية أن قضايا مثل الحرية والكرامة قضايا جوهرية تتجاوز الحدود الثقافية.

لم أر أن فوكوياما يقدم فعلا أسبابا مقنعة لمقاومة المجتمعات الإسلامية للتغيير الديمقراطي لانه على الأغلب كان متأثرا بفكرة المناعة الجوهرية! (مقاومة بالطبيعة!) لأي تغيير باتجاه

الديمقراطية وهي فكرة رديئة جدا كان برنارد لويس أكثر من تحدث عنها.

ولعلي هنا أريد أن أذكر أن الخطاب المؤسس للنهضة الأوروبية كان (خطاب من أجل كرامة الإنسان) للايطالي بيكو ديلا ميرندولا 1494. الذي ذكر صراحة مرجعيات عربية مثل ابن المقفع وابن باجة.. الخ من العرب الذين أسهموا في المعرفة الإنسانية. وهذا يدل على غنى التفاعل الثقافي بين ضفتي المتوسط خاصة في المراحل التي كانت تسود فيها العلاقات الودية بين الجانين الأمر الذي كانت يسمح بانتشار الأفكار بلا مشكلة في فضاء البحر المتوسط.

وهذا التفاعل بطبيعة الحال لا يقود بالضرورة إلى تبني كل ما ينتجه الآخر بقدر ما يعني أن عملية التفاعل تقود في أحيان كثيرة إلى خلق أرضيات أفضل للتعاون والحوار.

والنقطة الثانية، التي تناولتها في حينها كانت مسألة النسبية في المرجعية الثقافية والتي تستبعد فكرة إنتاج النسخة الواحدة في المجتمع الديمقراطي وهو أمر نراه جليا حتى في المجتمعات الغربية التي من المفترض أنها تملك مرجعيات ثقافية موحدة.

اهتمامي بمسألة النسبية الثقافية اهتمام قديم وما زلت أعتقد أن إنسانية الفكرة لا تلغي رؤيتها من منظور نسبي، وبعبارة أخرى من منظور الثقافة التي تنتجها.

وعلى كل حال، لا ألوم فوكوياما وسواه من المنظرين الغربيين لانهم يفكرون من خلال المنتج الثقافي الذي تربوا عليه والذي على أساسه يرون الأمور.

وقد لاحظنا الارتباك وغياب الوضوح في هذه النقطة عندما طرحت الولايات المتحدة مسألة دمقرطة الشرق الأوسط التي أكدت الأحداث عدم امكانية التصدير الكيفي لأن الأفكار أيا كانت عظمتها لا يمكن أن تعيش ويعاد تصنيعها إلا في بيئة حاضنة لها لأجل أن تجد لها حظا في الوجود.

والأكثر سوءاً أن هذه الأفكار طرحت في ظل الغزو العسكري الأمريكي للعراق وفي ظل مناخات معادية تماما لأمريكا في المنطقة الأمر الذي بدا معه التجاوب مع المشروع الأمريكي نوعا من عمالة ثقافية للقوات الغازية التي ارتكبت من الفظائع والانتهاكات الأمر الذي كانت معه مقاومة كل ما تطرحه أمريكا أمرا مشروعا في نظر غالبية الناس.

أسباب الإنفجار العربي كانت خارج كل التوقعات والحسابات والاستراتيجيات. بائع خضار تونسي يحمل شهادة جامعية يحرم من العمل في عمل متواضع، يُضرب ويُهان من قبل البوليس والشاب لا يحتمل هذه الإهانة فيقوم بحرق نفسه الأمر الذي أشعل المنطقة العربية كلها. في هذا الأمر تبرز أكثر فكرة الكرامة الإنسانية ربما أكثر من فكرة الديمقراطية وسواها من منتجات الثقافة الأنجلو سكسونية التي ركزت كثيرا على قضايا مثل مسألة الحرية والاقتصاد الخ.

ولذا فاني لا أعتقد أن الديمقراطية (وليفهمها كل واحد كما يشاء) كانت الدافع الأول باتجاه ثورات الغضب العربي التي لم يقدها لا أحزاب وايديولوجيات بقدر ما قام بها شباب غاضب يسعى لاستعادة كرامته التي تم هدرها لأجيال عدة.إنها بمعنى

آخر انفجار يشبه تماما انفجار السدود المائية التي لم تعد تحتمل الضغط.

وهذا الاعتقاد لا يقلل من الاعتقاد بان العرب يطمحون للعيش في مجتمعات حرة.

لقد تم التعامل مع الإنسان العربي في كل الأنظمة العربية كأنه لا شيء. إنسان لا قيمة له على الإطلاق. إنسان يمكن حتى لشرطي المرور أن يهينه ويذله أمام زوجته وأطفاله ووالديه بلا أدنى سبب!

أنا هنا لا أريد أن أدخل في المفاضلة ما بين الدافع الاقتصادي المعيشي ودافع الحرية بسبب تداخل هذه الدوافع لكني أعتقد أن مسألة انتهاك الكرامة الإنسانية كان العامل الأبرز لأسباب الإنفجار العربي.

فردود الفعل تجاه أنواع الظلم قد تختلف من ثقافة إلى ثقافة فسرقة شخص في ثقافة ما قد تثير ردة فعل أقل فيما لو تعرض للإهانة الشخصية أو العكس في ثقافة أخرى.

نحن أمام انفجار مجتمعات عربية تم خلالها إذلال الإنسان لعقود طويلة حتى بدت ثقافة الخوف من العسس والعواينية والبصاصين والمخابرات والأمن على اختلاف أسمائه من ابرز ملامح أنظمة الحكم في بلادنا.

ولعل هذا ما قد يفسر خلو الثورات العربية من الحمولات الأيديولوجية والشعاراتية التي حكمت الخطاب السياسي والثقافي العربي لزمن طويل.

بمعنى آخر نحن لسنا أمام ثورات تملك أجندة حكم بقدر ما نحن أمام ما يشبه من فيضان سياسي جديد لسد مأرب جديد يأخذ في طريقه كل شيء.

أنا لا أقلل بالطبع من شأن العقلانية والقوى السياسية التي التحقت بالصراع أو التي تخوضه من الأساس من موقع المعارضة. لكن ديناميات الصراع تؤشر بوضوح إلى صعوبة عقلنة الصراع وضبطه وهي أمور ليست سهلة حتى لو استبعدنا التدخلات الأجنبية، فكيف إن كانت هذه القوى تملك هي أيضا رؤيتها وإمكانات لفرض هذه الرؤى.

والسبب هو اننا إزاء انفجار أو انفجارات بات مثل المارد الذي خرج من القمقم ومن الصعب ضبطه خاصة في مجتمعات تقليدية تعج بأنواع التناقضات.

نحن بإزاء مرحلة انفجار شامل لكل الألغام والدماميل الإجتماعية والتاريخية والثقافية الأمر الذي يحتاج لزمن طويل لأجل ضبطه في منظومة سياسية جديدة ونظام سياسي جامع وفق ما تنتجه هذه الثورات والإنفجارات.

وهذا يلقى مسوؤلية أكبر على قوى التغيير بسبب حجم التحديات المطروحة وأكثرها خطورة كيفية العمل أثناء مسيرة التغيير وما بعد مرحلة تغيير النظام السياسي.

ولا شك أن مرحلة النقد التي سادت الثقافة العربية أكدت بلا أدنى شك استمرار الحيوية في الثقافة العربية لان غياب الأسئلة المتعلقة بالمستقبل مدعاة للقلق بل والتشاؤم. لكن إلى أي مدى يمكن أن يستمر الإنفجار العربي؟ هذا سؤال من الصعب الإجابة

عليه الآن لكني أخذا بعين الاعتبار لكل التعقيدات الموجودة اشك كثيرا اذا ما توقف قبل عقد من الزمان على اقل تقدير.

إشكالية انهيار النظام العربي القديم

أغلب التوقعات تشير الى أن حمم بركان سيدي ابو زيد ستظل تضرب المنطقة العربية حتى وقت ليس من السهل تقديره.
ففي المرحلة التونسية والمصرية من مرحلة التغيرات الكبرى في المنطقة العربية ساد الأمل والتفاؤل بالتغيير انطلاقا من نموذج ثورة البضعة اسابيع والتضحيات المحدودة التي حصلت في هذين البلدين. لكن الأمر بدأ يتغير لدى انطلاق موجة التغيرات في المناطق العربية العربية الأخرى الأكثر تعقيدا.

كما أنه بات من الواضح أن ماهية التغييرات باتت أكبر بكثير مما كان يظن في بداية الثورات.

ومن شبه المؤكد الآن لدى غالبية المحللين السياسيين أن سقوط رؤوس الأنظمة شيء وتغيير ثقافة النظم السياسية شيء آخر. الأمر الذي يعني أن مرحلة التغيير في المنطقة قد تستغرق وقتا اطول بكثير من الذي كان سائدا في البداية.

ولعل الوضع السوري وتعقيداته بات يقدم نموذجا للتغيير الدموي والمعقد بسبب تداخل التغيير في سوريا بعوامل عديدة منها ما يتعلق بالتنوع الثقافي في المجتمع السوري ومنها ما يتعلق بموقع سوريا.

وعلى الرغم من تعدد نماذج التغيير في المنطقة العربية الا أنه من المعتقد أن التغييرات السياسية الحاصلة ستفرز ديناميات لأنواع متعددة من الصراعات حول هوية الدولة والدستور

والاقليات.. الخ من المسائل الشائكة التي قد تختلف من بلد لآخر حسب تعقيدات الوضع فيه، إلا أن القاسم المشترك هو أن المنطقة العربية ذاهبة باتجاه طريق من الصعب تقدير نهايته. كما بات من شبه المستحيل تقدير الزمن الذي ستستغرقه هذه التغييرات التي قد تؤدي في بعض الدول الى تطاحنات داخلية تدمر نسيج المجتمع القائم وقد لا تنتج سوى الفوضى على المدى المتوسط على الاقل.

فنحن الآن نمر بمرحلة تفكيك الدولة العربية القديمة لأجل استبدالها بدولة جديدة لا أحد يعرف حتى الآن كيف يتكم تركيبها وبأي محتوى أو بأي مضمون سياسي وإجتماعي. والمشكلة بالطبع ليست فقط بالتفكيك بل أيضا مرتبطة بعوامل عديدة أهمها ماهية قوى التفكيك ودور الدول الكبرى، وبالطبع كيف ستتم إعادة التركيب؟!

وهذا التفكيك سيفجر على الأغلب العديد من التناقضات والدمامل المجتمعية التي تم قمعها في السابق أو التي لم تكن من الأمور المفكر بها لدى تأسيس هذه الكيانات. الأمر الذي سيقود الى عملية تفكيك واسعة قد تطال الوحدة الترابية لبعض الاقطار العربية، وتؤدي كما في سوريا الى صراعات أقرب منها للحرب الأهلية منها الى الثورة. أو الى تداخل عامل الثورة مع العوامل الثقافية الأخرى أضف بالطبع للعوامل الدولية واستغلال القوى الكبرى عادة لمثل هذه الصراعات لتقوية وضعها.

فقد دخل الإسلام السياسي بقوة على مجمل الوضع الأمر الذي بات ينظر اليه بقلق من الأوساط الليرالية التي تعتقد أن الإسلاميين أخذوا الثورة باتجاه الحكم الديني وهو أمر لا يقبله

الإسلاميون الذين ينظرون لانفسهم كضحايا للنظام السابق. وهذا سيؤدي على الاغلب الى صراعات معقدة كما نرى في مصر بين قوى الإسلام السياسي والقوى العلمانية.

السؤال الآن ما العمل؟ وهل هناك طريق خلاص أو نوع من حل وسط لأجل تجنب الأسوأ؟!

من وجهة نظري تتحمل قوى التغيير العربية مسؤولية كبيرة في هذه الأوقات التاريخية التي تمر بها مجمل المنطقة العربية التي يرتبط مستقبلها بهذه التغييرات. وعلى قوى التغيير أن تعي أن التغيير يشبه وضع الحطب في الموقد، أي أن عليها أن لا تضع كل حطبها في الموقد لكي لا تندلع نيران أكبر من قدرتها على ضبطها في حال امتداداها وان يكون لديها المرونة لكي تتعامل مع واقع التغيير ليس بمنطق انتحاري بل بمنطق المسؤولية التاريخية.

ويظل من الصعب جدا معرفة إلى أين تتجه الأمور في ظل هذا الإنفجار الواسع الذي بات يطال كل نواحي النظام العربي القديم. وهذا الأمر قد يعني دخول المنطقة العربية الى نوع من حرب المائة سنة التي حصلت في اوروبا والتي أدت الى إنهيار النظام القديم وتشكل اوروبا الحديثة. قول هذا لا يعني أن المنطقة العربية مقدمة بالضرورة على مائة عام من الصراعات، بقدر ما هو القول إن ما شهدناه حتى الآن هو بداية انهيار الجبل الجليدي. ولذا قد يكون من الصعب معرفة كيف يتم بناء عقد احتماعي جديد قبل أن نعرف كيف ستكون عليه عملية تفكيك النظام القديم. وهذا يعني أن علينا أن نتتظر أعواما قد

تطول وقد تقصر، حسب ظروف كل بلد، لمعرفة كيف تتم ولادة النظام العربي الجديد!

الاقليم العربي في حالة انحباس حضاري

منطقتنا تعانى حاليا من حالة انحباس وانحطاط حضاريين قد لا يمكن مقارنته سوى في القرن الثالث عشر، عندما انهارات تماما الدولة العباسية التي كانت مفككه، واجتاح المغول البلاد في احد اهم عمليات التدمير الحضارى عبر التاريخ.

ما حصل ويحصل في الاونة الاخيرة هو شيء يشبه الوضع الذي حصل في القرن الثالث عشر. فقد تفككت دول المشرق الأساسية، حيث تسيطر الآن عصابات متطرفة تعيث في الأرض فسادا في لحظه تاريخية هامة من تاريخ المنطقة حيث بدا الحراك الشعبي باتجاه التغيير. فمع دخول العالم ومنطقتنا عصر العولمة بدا من الواضح التململ الذي باتت تعيشه بلادنا على وقع التغيرات الكبرى التي تحصل في العالم.

ولم يكن بوسع الدول ذات الطابع السلطاني التكيف مع هذه التغيرات باتجاه تحديث الدولة نحو دولة الحرية والمواطنة. الأمر الذي فسح المجال لقوى تطرف تستفيد من مناخات عولمة الاتصالات، ومن مناخ انسداد افاق الدولة الوطنية، أضف الى ذلك المؤامرات الخارجية. كل ذلك ساهم في جر المنطقة الى فوضى عامه قوضت سلطه الدول، وأوجدت دويلات أمر واقع صغيرة تبنت أشد أشكال التطرف الديني، وراحت تمعن تدميرا في البنية الحضارية لبلادنا، سواء على المستوى المادي، عبر تدمير معالم حضارتنا المادية. أو على مستوى اعمال تطهير عرقي وثقافي يستهف مكونات المشرق العربي.

ولم يكن ظهور داعش سببا في حالة الإنحطاط هذه، بل نتيجة لانهيار عام في منظومة القيم المتعارف عليها منذ مئات السنين. ففكر التطرف وغير التطرف لا ياتي من السماء إنما هو حصيلة ظروف وعوامل متعددة. وبالرغم من أن بلاد المشرق انتجت عبر التاريخ نوعا من وعى عام بضروره التعايش المعبر عنها في المثل الذي يقول (كل من على دينه الله يعينه!)، لكن الحقيقة أنه لم يتم تخليص الوعى العام فعليا من ثقافة ديكتاتورية الحقيقة. والسبب في اعتقادي أنه لم يحصل على المستوى التاريخي عملية كي حقيقية للوعي العربي.

هذا الكي كان مطلوبا من قبل الاحزاب العلمانية التي حكمت المشرق العربي لكنها للاسف لم تقم بذلك. لذا ظلت المسافة واسعة بين من يسعون لتطوير بلادنا مستندين على منطق الحداثة، وعلى تجارب وخبرات الشعوب التي سبقتنا في هذا المضمار، وبين الوعي الشعبي الدفين بعودة الخلافة... الخ، من المسميات التي تريد أن يقود الدين المجتمع والتي لا بد من الاعتراف أنها تحمل في بعضها بذور ما نراه اليوم.

إن مشروع التصدي لفكر داعش واخواتها لا يمكن أن يتم إلا من قبل قوى تمثل نقيضا لهذا الفكر وهذا عمل تراكمي يحتاج لجهودا جبارة من قبل المؤمنين بثقافة التعايش وقبول الآخر والتسامح. وهو عمل لا بد من الشروع به اليوم قبل الغد. فمنطقتنا تعيش لحظات انهيار حضارية في غاية الخطورة الأمر الذي يستدعى جهودا جبارة لمواجهة كل ما ينتجه عصر الإنحطاط.

دعوة الى اعلان المشرق
منطقة كوارث حضارية

منذ العام 2003 وحتى قبله يتنقل شبح في المشرق العربي. إنه شبح التفريغ والاقصاء لمجموعات حضارية من صلب مكونات المشرق العربي.

لن أدخل في لغة الارقام لأنها مرعبة فعلا وتبعث على التشاؤم. لكن التفريغ والاقصاء بات استراتيجية نراها بكل وضوح هدفها تفريغ حضارات بلادنا من التنوع والتعددية عبر سياسة تهجير مكونات بلادنا من صابئة الى يزيديين الى مسيحيين، الى سريان الى أرمن.. الخ.

فقد بدأنا نرى المشرق غير المشرق الذي اعتدنا عليه بتنوعاته الحضارية. وهو الأمر الذي يشكل اخطارا كبرى ويصب تماما في مصلحة الدولة الصهيونية التي حلمت طويلا بتفكك المشرق الى اثنيات وطوائف تكون فيها اليهودية الاقوى.

والمؤسف أن قوى التنوير والقوى الداعمة لثقافة التنوع والتعايش التي يفترض أن تتحمل مسوؤلية تاريخية للتصدي لهذا الإنهيار، لا تعمل بما يكفي لوقف هذه الهجمة المدمرة التي باتت مثل الجراد يدمر كل شيء. والحقيقة المؤلمة التي يجب أن تكون واضحة للجميع، أن اقليمنا يدخل في حالة موت حضاري فعلي ولا بد من إعلانها منطقة كوارث حضارية. واذا لم يأخذ الأمر بجدية كبيرة ولم يتصد أهل بلادنا لهذا الخطر سنجد أنفسنا

قريبا في نموذج يشبه نموذج افغانستان، هذا إن لم نكن قد اقتربنا من الوصول اليه.

في أنظمة الحزب الواحد لم تكن هناك تعددية سياسية لكن التعددية الإثنية والدينية كانت موجودة وكان الأمل موجودا لتغير نحو الديموقراطية. أما الآن، في ظل هذا الخراب، وتمدد الاصوليات التي تدمر التعددية الحضارية، فإن النتيجة المؤكدة هي تجريف حضاري وكارثه حضارية وانسانية غير مسبوقة في تاريخ المشرق.

المطلوب الآن تديين الإسلام،
بعد كوارث شعار أسلمة السياسة

الكل يجمع على أن بلادنا كلها في خطر محدق. والخطر هذه المرة لا يقتصر على الصهاينة ومن وراءهم من قوى عظمى، بل من قوى محلية من بيننا أنبتت أشد انواع فكر التطرف الديني والصقته بالاسلام.

فهم أولا حرفوا الربيع العربي عن اهدافه بقيام مجتمعات شفافة وحرة وعادلة، وادخلوا بلادنا في دوامة الصراعات الدينية والطائفية. وحادثة الاعتداء على حسينية للمسلمين الشيعة في السعودية، هي ضمن مخطط نقل الصراع الطائفي الى الجزيرة العربية. وهذه الفئة من المتطرفين هي من شوه الإسلام بشكل لا أعتقد أنه كان بوسع الصهاينة القيام به في الف عام.

وفي اوروبا بدأ المسلمون من الجيل الأول والثاني يشعرون بوطأة الإسلاموفوبيا التي ازدادت بعد ظهور الحركات المتطرفة التي تلصق الإسلام بها. وبات الكثير من المسلمين والغالبية الساحقة منهم مواطنون مسالمون يحترمون قوانين البلاد التي يعيشون بها، يشعرون بمقدار الاذى الذي سببته وتسببه الحركات المتطرفة لهم ولاولادهم.

فمن المحزن أن كلمة الإسلام لم تعد مرتبطه بابن رشد أو ابن سينا أو الخوارزمي أو ابن خلدون أو بسواهم ممن ساهم في اثراء الفكر الإنساني. بل باسماء مثل اسامة بن لادن،

والظواهري وابي بكر البغدادى والخ من الاسماء التي ربطت من خلال اعمالها البربرية وإن زورا الإسلام مع الإرهاب.

والمشكلة هي أن هناك من وسائل الإعلام المرتبطة بالصهاينة التي وجدت في هذه الحركات ضالتها (إن لم تكن قد ساعدت على ايجادها) وراحت تعمل ليل نهار من أجل الاساءة الى الإسلام والمسلمين، بدون تمييز بين الغالبية الساحقة التي ترفض ربط الإسلام بالعنف، وبين فئة محدودة من الإرهابيين الذين يوظفون الدين من أجل اجنداتهم الخارجة عن كل منطق ودين.

هذا الأمر يزيد الطين بلة لانه يصعب على المعتدلين شرح موقفهم الرافض من كل انواع العنف المرتبطة بالدين. ويعطى للاعداء ذرائع لأجل تعميم صور نمطية سلبية عن المسلمين عموما.

واعيد للذاكرة هنا أن ذات وسائل الإعلام هذه المرتبطة بالصهاينة، كانت قبل بروز ظاهره الإسلاموفوبيا، تعمل على تشويه صورة العرب في الغرب. وكلنا يذكر العديد من الافلام وسواها من الأعمال الدعائية المعادية كانت تسعى لتصوير العرب بطريقة سلبية جدا. نقول هذا الكلام لكي نلفت النظر الى خطورة الوضع، لان هناك تحالفا موضوعيا أو تقاطع مصالح بين المتطرفين، وبين أعداء العرب والمسلمين، الذين وجدوا في هؤلاء فرصة ذهبية لأجل تنفيذ أغراضهم التي نعرفها جميعا.

حان الوقت أن تعاد للاسلام صفته الطبيعية، الا وهي انه دين من أجل خلاص الإنسان ودين يؤمن به مئات ملايين البشر من كل الاجناس وفى كل القارات بدون وضعه في إطار

سياسي. فالاسلام هو دين لعبادة خالق البشر وليس أيديولوجية سياسية.

اعادة الإسلام الى وضعه الطبيعي كدين تعايش مع مختلف الملل والنحل عبر التاريخ، هو المهة المطلوبة في الوقت الحاضر. وإعادة الإسلام الى وضعه الطبيعي كدين يحض على العدل والتسامح واحترام الإنسان هو المطلوب الآن بعد كل التشوهات التي حصلت.

لقد ادى نهج تسييس الدين الى تلك الكوارث التي نشاهدها في اجزاء كثيرة من الوطن العربى. وحان الوقت أن يتم تخليص الدين من براثن من يريدون تسيسيه لجعله أيديولوجية سياسية هدفها السيطرة والتحكم بمجتمعاتنا وبلادنا.

دعوة الى رجال الفكر والسياسة والثقافة العرب الى تبنى خيار سوسيولوجيا الأمل!

دعوت وما زلت لخلق سوسيولوجيا الأمل وانا مدين للمرحوم المفكر محمد أركون لهذا التعبير. وكلامي موجه للجميع بالطبع وبصورة خاصة لكل الذين يساهمون في صناعة الرأي العام من رجال سياسة وفكر وتربية.

وقد استفدت من الاطلاع على تجربة للاونيسكو في البرازيل اعتمدت على إستراتيجية تعليمية غير تقليدية وذلك عبر التركيز على تغيير البنى التقليدية التي تقبل التخلف. وسوسيولوجيا الأمل هي في نظري البديل الإستراتيجي الوحيد لثقافة العنف السائدة في اقليمنا العربي، والتي يمكن أن تنهض ببلادنا بصورة سلمية. وفكرة سوسيولوجيا الأمل تعتمد على إستراتيجية ضرب الجذور الفكرية المنتجة للتخلف، التي لولاها ما ازدهرت ثقافة التطرف والالغاء والاقصاء. أي انها اكبر بكثير من محو للأمية بالمفهوم التقليدي، لانها تتعدى ذلك الى ضرب معيقات التقدم. واولها تغيير المصدر أي الذهنية المنتجة للتخلف، وتغيير العقل الجاهز لاستقبال فكر التخلف.

وقد كتبت في هذا الموضوع في التسعينيات اثناء بحث قدمته اثناء دراستي مادة (العالم الثالث) حيث قمت بنقد بعض من أفكار النهضة العربية (رغم اهميتها التاريخية) لانها ظلت في رأيي حبيسة فكرة التقدم في اطاره الشكلي من غير أن تذهب

الى الجذور التي تتنج ثقافة التخلف. وقد ساد الاعتقاد حينها أن تعميم التعليم على الجميع يقضى على التخلف واثبتت الاحداث كما يحصل الآن، أن الأمر ليس كذلك. لذا المطلوب قطيعة معرفية مع فكر التخلف الذي يتكيف ويتناغم مع القيم الإجتماعية والدينية المتخلفة والذي يضع بلادنا في حلقة مفرغة طوال الوقت.

ولذا فالتغييرات السياسية الفوقية لن تعطي أي نتيجة أيا كانت النوايا طيبة لدى رجال السياسة، إن لم يتم ضرب مصدر الوعي الزائف. وهذا الأمر يتطلب بالطبع وضع استراتيجيات تعليمية لمحو كافة أنواع الأمية بما في ذلك الأمية المعرفية والجمالية والثقافية.

هناك نوعان من الوعي. الأول هو الوعي الزائف والموجود عادة في خرافات الثقافة الشعبية، وهو الذي تغذى منه كل انواع حكم الديكتاتوريات عبر التاريخ، وكل أنواع الفكر الديني الاقصائي والتعصب وكل ما يرتبط به من ثقافة الكراهية والاحقاد والقتل الخ.

إذن، فان الاستراتيجيات التعلمية البديلة تقوم على تقوية ثقافة الحرية والاختيار والفكر النقدي والنظر الى الأمور بعمق، وذلك بضرب الوعي الزائف لاجل خلق وعي نقدي. الفارق بين الوعيين أن الأول ينقاد بسرعة لثقافة القبيلة المنغلقة والخرافات والشعوذة والاوهام. أما الوعي النقدي فانه يملك قاعدة صلبة لأنه يستند أي المعرفة العقلية التي تطرح الاسئلة وتحاكم الامور عقليا ولا تقبل بالتفسيرات السطحية.

في الوعي النقدي يسأل المرء لماذا وكيف ويسأل ويتساءل عن أفضل الخيارات الممكنة لأن العقل منفتح على خيارات عدة وليس حبيس فكر القبيلة.

الوعي الزائف يملك طبيعة انفعالية حادة. مثلا اذا ما جاء شخص وقال إن أبناء الدين أو المذهب الآخر أو القبيلة الأخرى قتلوا رجلا من هذه الفئة، فان حمية الوعي الزائف الجمعي تثور. ويبدأ التخريب والتكسير والقتل بدون أن يتحقق أحد إن كان الأمر صحيحا أم اشاعة أم سوء تفاهم. المجتمع الزائف مجتمع منغلق يقدس الماضي بدون معرفة بطريقة نقدية، انه مجتمع القطيع الذي تسهل عادة قيادته من ديماغوجيين وانتهازيين، ويهيج لأي حدث ولأي سبب وهو مستنفر دائما خاصة في الازمات حيث يتعاطى مع الاحداث بانفعال وبدون روية، ومن أهم خصائصه ضعف عام في التفكير السببي.

عكسه الوعي النقدي الذي ليس من السهل قيادته. إنه وعي يقرأ الاحداث بتمعن وروية بدون انفعال. ولا يتعامل مع الأحداث برد فعل هيستيريا القبيلة. ومن أهم خصائصه أنه وعي عقلاني يملك القدرة على التحليل وربط الأمور ببعضها البعض.

إشكالية التغيير باتجاه ثقافة الديموقراطية في المجتمعات العربية

حسب اعتقادي لا بد للمجتمعات درجة معقولة من النضوج الثقافي لان تتحول باتجاه مناخ الديمقراطية. وأنا استعمل كلمة (مناخ) لاشير الى البعد الأوسع للكلمة، ولا أحصرها في صندوق الإنتخاب.

صندوق الإنتخاب على أهمية دوره لا قيمة كبيرة له في مجتمع الأمية الثقافية والسياسية. ويمكن للأهالي إلا أن ينتخبوا شيخ عشيرتهم من خلال خلال منظومة الولاء للقبيلة. وبذلك يصبح الصندوق ديكورا لا أكثر ولا أقل. لكن الثقافة الناضجة قادرة على استيعاب بل وهضم الثقافة الديمقراطية وحتى إنتاج ديمقراطيتها الخاصة بها.

أهم ما يتميز به المجتمع التقليدي عن الحديث هو غياب ثقافة الابداع كما لاحظت أكثر من دراسة انثروبولوجية من القرن التاسع. ثقافة المجتمع التقليدي عبارة عن ثقافة اجترار وماء راكد آسن لا يتحرك بل يملك القابلية والجاهزية لكل الافكار الضيقة الافق سياسية أم إجتماعية أم دينية. وهو الأمر الذي نلحظه في مجتمعاتنا في الوقت الحاضر.

بينما المجتمعات الحرة تفتح المجال للعقول للابداع الأمر الذي يسهم في تطوير المجتمعات. المجتمعات التقليدية تحبط المبدعين، تسخر منهم أو تعمل على التقليل من شأن ما يفعلون

لأنها مجتمعات خائفة من أي فكرة جديدة. وإذا ما ظهر جديد فانهم يركزون على سلبياته واضراره أكثر من فوائده. ولذا فانها لا تملك الشجاعة أن تقتحم فضاء الحياة بالمعنى الواسع للكلمة بسبب الرهاب من التغيير ومن كل جديد.

هذا الواقع، أي ضعف النضج الثقافي الحداثي، هو الذي يفسر الى حد ما لماذا وصل الربيع العربي الى ما وصل اليه من عنف وتعصب ديني وصراعات طائفية وقبلية. لكن على الرغم من هذا المناخ الثقافي الصعب، لا أعتقد أن الصورة سوداء تماما. فهناك بعض المؤشرات، وإن كان صغيرة، تدل على قرب انحسار الموجة الظلامية. الأمر الذي يجب أن تستفيد منه قوى التحول الديمقراطي بالشروع في استنهاض الطاقات المجتمعية وتطويرها باتجاه ثقافة ديمقراطية التي تفتح الطريق في مرحلة لاحقة نحو بناء دول ديمقراطية.

نحو بناء استراتيجية الأمل

وسط الظلام الدامس الذي تغرق فيه بلادنا دعوت وما زلت الى مقاربة جديدة اسميتها "استراتيجية الأمل". فالفقر والظلم والتهميش والذاكرة الجمعية المثقلة بتاريخ صراعات كلها عوامل لا تنتج إلا ثقافة التطرف والاقصاء والقسوة.

والتراكمات الثقافية التاريخية عززت من ثقافة القوة العمياء واضعفت قيم الرحمة والعدالة والإنصاف في بلادنا. ففي الألف عام الماضية لم تنجح الثقافة العربية في إحداث أي تقدم على مستوى الإجتماع السياسي. بل لم تستطيع حتى تطبيق معايير العدالة الدينية التي كانت تحكم بشرعيتها.

في العصر الحديث بات من الممكن قياس صحة المجتمع عبر (مقياس ريختر إجتماعي!) لرصد ومعرفة أمور عديدة منها مستويات المعيشة (ليس عن طريق الدخل القومي للفرد لانه مضلل في أغلب الاحيان ويركز على العاصمة ويهمل الارياف)، الى مستويات الثقافة العامة التي لها عادة تأثير في الوعي العام من خلال عدد الأندية والمراكز الثقافة وعدد اعضائها، الى التعليم العام للاولاد والبنات، ومعدلات البطالة بين الفئات الشابة، ونمط العلاقات الإجتماعية بين المواطنين، ورصد التوترات الإجتماعية والثقافية، وفهم ظروفها وآلية تكونها.. الخ.

كل هذه المعلومات صار بالامكان معرفتها بسبب سهولة الاتصالات والتقنيات الحديثة. وصار من الممكن على سبيل

المثال توقع هزات إجتماعية لدى ارتفاع معدلات البطالة بين الشباب لمستويات خطرة قد تهدد الامن الإجتماعي.

ومن المحزن أن الدول العربية لم تكن على استعداد للاهتمام بتقارير التنمية البشرية العربية التي تحدثت عامي 2009 و2010 عن انسداد الافاق أمام الشباب الأمر الذي يهدد بانفجارات واسعة.

ومن أهم الأمور الملفتة في الحياة السياسية العربية الآن حسب اعتقادي، هو شيخوخة الاحزاب السياسيه القومية واليسارية، وتحولها الى ماكينة هرمة تشجع على القبلية السياسية، والتكرار الايديولوجي الديناصوري. اضافة الى خلو ملفت للنظر من أفكار الابداع والتنوير، في الوقت الذي استفادت فيه الاحزاب الدينية من مناخات الاحباط، وسيادة الفكر التقليدي الماضوي الجاهز لأجل التوسع والإنتشار .

أعتقد أن من أهم سمات المرحلة القادمة هي ضعف الاحزاب الكبيرة وثقافة الأيديولوجيا عموما، لصالح المنظمات الاهلية المعبرة عن مصالح المجموعات المهنية والمناطقية الاصغر حجما، والتي تتيح للافراد مساحة اوسع من مساحة الماكينات الحزبية الكبيرة.

ولذا أعتقد أنه من المهم تشجيع المبادرات الفردية الخلاقة، والمبادرات الأهلية التي يبادر اليها رجال الحكمة والرأي والحريصون على المصلحة العامة، لأجل امتصاص حدة موجة الكراهية السائدة في الاقليم العربي الآن، وتقوية ثقافة التآخي بين المواطنين. إنه عمل صعب لكن لا بد من التبشير بثقافة

الأمل، وسوى ذلك من الصعب رؤية أي مستقبل آمن للأجيال القادمة في معظم بلاد الإقليم العربي.

حول الوضع في فلسطين
دعوة لتقديم رؤية استراتيجية

قبل بضعة أعوام كانت هناك مبادرة من بعض الشخصيات الفلسطينية لتشكيل فريق أكاديمي فلسطيني من تخصصات متنوعة ليساهم بتقديم رؤى حول مستقبل القضية الفلسطينة بابعادها المختلفة. والمؤسف انه لم يكن لي الحظ أن اشارك لأن الدعوة وصلت لي متأخرة.

وعلى كل حال قدمت أوراقا تحتوي على أفكار مهمة لكني أظن ان التطورات التي حصلت وتحصل في المنطقة باتت تستدعي مبادرة جديدة لتقييم المرحلة القادمة على ضوء ما يجري.

على كل حال ما أقوله ليس جديدا تماما لاني نشرت بعض افكاري بهذا الصدد في حوالي عشر مقالات بالعربية والإنكليزية والنرويجية كما قدمته في أكثر من محاضرة منها في مركز الأبحاث الإستراتيجية التابع لوزارة الدفاع النرويجية في أوسلو قبل بعض الوقت وآخرها كانت المحاضرة التي قدمتها في وارسو في بولندا.

واضيف أن الافكار التي أطرحها هي قراءتي للوضع الحالي في المنطقة ولذا استطيع أن ازعم أني كتبت مبكرا بعض هذه الأفكار حتى عندما كانت التوقعات كبيرة في موضوع الربيع العربي.

أولا، أعتقد أن مصطلح الربيع العربي لم يعد مناسبا للتداول. ما نشهده الآن هو انفجار واسع النطاق تتداخل فيه العديد من العوامل التاريخية والثقافية والسياسية التي فتت وتفتت نسيج مجتمعاتنا ومن المحزن أنها تقود لنوع من انتحار مجتمعي غير مسبوق في تاريخنا المعاصر.

لذا فاني أعتقد أن المشرق العربي القديم قد انتهى وأن مرحلة تشكل جديدة آخذة بالتكون على ضوء ما يجري من صراعات مسلحة باتت تأخذ شكل حرب حضارات دينية الى حد كبير. ويبدو من بعض المؤشرات أن هذا الوضع سيستمر لفترة من الصعب معرفتها. ولذا لا استبعد فكرة اختفاء دول في المنطقة كما لا استبعد تشكل دول أمر واقع أو امارات على أسس دينية أو مذهبية كما لا استبعد أيضا اختفاء مجموعات عرقية أو دينية بسبب النزاعات والحروب الأمر الذي سيؤدي على الأغلب في ظني الى هجرات جزئية أو كبيرة.

كما اضيف أن هناك فوارق عديدة بين سايكس بيكو 1916 والآن وأهم هذه الفوارق أن ما قد يحصل الآن هو سايكس بيكو ليس مفروضا تماما من الخارج بل قد يحظى بشعبية ما بسبب اجواء الإنقسامات وفقدان الثقة والدمار والجروح النفسية... الخ

أنا أظن ان الغرب السياسي بات يدرك هذه الحقيقة وأظن حسب قراءاتي ومتابعتي لمراكز الدراسات الغربية المتعلقة بمنطقتنا أنه مستعد أو يستعد للتعايش معها طالما مصالحته الأساسية مضمونة ألا وهي النفط لأنه في النهاية ينظر الى منطقتنا كمحطة بنزين بالدرجة الاولى. هذا عدا أن الصراع ما زال بعيد نسبيا عن منطقة مصالحه الإستراتيجية في الخليج.

أما فيما يتعلق باسرائيل أعتقد أن الإنفجارات العربية اثبتت على عكس البروبوغندا الاسرائيلية التي تدعي أنها تعرف كل شيء.. الخ. اثبتت هذه التطورات أن اسرائيل دولة هامشية ليس لها أي تأثير على الاحداث لكنها المستفيد الأكبر منها. وبالطبع إذا ما تمكنت فانها ستعمل والمؤكد أنها تعمل الآن ما تستطيع وفق رؤيا بن غويرون في خمسينيات القرن الماضي القائمة على تفكيك العراق وسوريا الى دول طائفية متصارعة الأمر الذي كان السياسي اللبناني المرحوم ريمون أده يكرره دائما.

وعلى عكس بروبوغاندا أطراف الصراع فان الدولة الصهيونية حسب اعتقادي ليست مع أي طرف وجل غايتها أن تدمر كل الاطراف بعضها البعض وترى بلادنا مدمرة ومنقسمة الى أطول فترة ممكنة ولذا ليس من الصعب الاستنتاج أنها تعمل بكل امكاناتها لأجل ذلك.

السؤال المطروح هو: كيف ستؤثر هذه التطورات على كفاح الشعب الفلسطيني؟ الواقع، إنه من الصعب معرفة كيف سيكون تأثير ذلك على الحالة الفلسطينية بشكل مفصل. وإن كنت أعرف كما يعرف الجميع أنه سيؤثر سلبا على نضال الشعب الفلسطيني لان الشعب الفلسطيني يجد نفسه أول مرة منذ عام 48 في مواجهة المحتل فيما جبهته الخلفية التي كان يستند عليها متصارعة وتدمر بعضها البعض.

وهذا إذا ما أضفنا اليه عامل الإنقسام الفلسطيني فإنه يزيد الوضع الفلسطيني ضعفا على ضعف الأمر الذي يستدعي حسب رأيي إستراتيجية فلسطينية تأخذ بعين الاعتبار مجمل هذه التغيرات.

نحو مراجعات جذرية
لنكبة فلسطين عام 1948

عندما تصاب الشعوب بنكبات حقيقية وهزات سياسية عميقة تنبرى الامم تتساءل فيه عن الأسباب التي أدت الى الكارثة.

الهزائم العادية مثل الهزائم العسكرية عادة ما تؤدي الى مراجعات ضمن الاطار العسكري، أي تحسين وضع القوات العسكرية من خلال الاعداد والتدريب والتزود بالسلاح.

لكن عندما تصاب الأمم بكوارث بحجم كارثة فلسطين فان المراجعات تتعدى الاطار العسكري، إذ لا بد من مراجعة شاملة. الذي قرأ التاريخ الفلسطيني من خلال العديد من المؤرخين الفلسطينيين من عارف العارف الى محمد عز دروزة.. الخ سنجد أن غالبية التركيز كان يتم ضمن إطار ابراز فروقات القوة بين الطرفين سواء لناحية الوضع العسكري أو الدعم السياسي الدولي، وكلاهما كانا يصبان بوضوح لصالح الصهاينة.. ولا شك أن هذه عوامل لا يمكن تجاهلها لانها لعبت دورا هاما في تحقيق النصر للصهاينة عام 48.

ولن أدخل هنا بهذه المقارنات لأنها كتبت كثيرا لكني أعتقد أن الأمر لا يقتصر على العوامل المباشرة. فهناك عوامل عدة لعبت دورا في اضعاف قوة المجتمع الفلسطيني.

أولى هذه الأسباب هو في رأيي ضعف الوطنية الفلسطينية التي كانت بداياتها قد بدات للتو تظهر خاصة بعد الإنتداب

البريطاني. بمعنى آخر، إن مفهوم الكيانية لم يكن واضحا تماما في أذهان الشعب الفلسطيني وهذا له اسبابه التاريخية بالطبع. وهذا الضعف لم يقتصر على فلسطين فحسب، بل وُجد في أماكن اخرى في ما كان يسمى الولايات العثمانية السابقة. وقد تحدث الملك فيصل ملك العراق بهذا المعنى عندما قال إنه يحكم بلدا تحكمها الروابط العشائرية وليس الوطنية..

لقد ولدت القومية العربية من رحم النضال ضد العثمانيين في أواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين. وقد تصادف هذا مع ولادة الصهيونية.

وفي الوقت الذي امتلكت الصهيونية الغربية عن المنطقة وعيا بالحدود الجغرافية التي سيقيمون عليها دولتهم وتمت التعبئة على أساسها، كان الشعب الفلسطيني ما زال واقع تحت تأثير الفكر القومي العربي لأن المسافة الزمنية التي كانت تفصل بين تبلور الفكر القومي العربى، وظهور الوطنية الكيانية (التي فرضت كأمر واقع بحكم اتفاقية سايكس بيكو) مسافة قصيرة لم يتح فيها للوطنية الفلسطينية أن تنضج تماما. وبالتالي لم يتبلور وعي وطني فلسطيني واضح تماما في إطار حدود الوطن الكيان.

لقد كانت ثورة العام 1936 بداية تبلور الوعي الوطني في فلسطين والإحساس القوي بالخطر الذي بدأ الناس يلمسونه من خلال الهجرة الصهيونية. لكن هذه الوطنية ظلت في إطار الزعامات العائلية والعشائرية الأمر الذي يفسر ضعف الاحزاب التي تشكلت في المدن الأساسية.

وهذا من الأسباب حسب اعتقادي التي منعت من ظهور حزب وطني جامع لاهداف الشعب الفلسطيني الذي بقي موزعا على ولاءات عائلية وعشائرية الأمر الذي ساهم في اضعاف قوه مقاومة الصهاينة.

المجتمعات ذات الصبغة العشائرية قد تقاتل جيدا وقد تنتج ابطال... االخ لكن إنتاج الاستقلال يتطلب وعيا عميقا بالإنتماء للوطن، ويتطلب قوى سياسية ذات بنية حداثية بعيدة عن منطق التقوقع المناطقي والعائلي.

هذا الأمر بات في صلب الثقافة الفلسطينية منذ زمن بعيد. وهذه الفكرة وليدة التاريخ والعاطفة والاحساس بالضعف والتوقعات.

لأجل فهم أي فكرة لا بد من معرفة ظروف تكونها لأن كل فكرة في النهاية لها تاريخ ميلاد، حتى وأن لم نستطع دوما معرفة ذلك بدقة.

ولدى معرفتنا للفكرة عندما كانت طازجة أو جديدة يصبح من الأسهل فهم ظروف تشكلها وفعلها في التاريخ. وهذه الفكرة ولدت في مرحلة اجتياح قوات الممالك والاقطاع الاوروبي بلادنا في مرحلة ما يعرف بالحروب الصليبية.

ولما كان التاريخ الرسمي والديني يركز على انجازات الدولة، تم تكريس فكرة (الإنقاذ من الخارج!) وفكرة صلاح الدين في الخيال الشعبي وهو أمر يخدم أيديولوجية الدولة الرسمية (ولأسباب تاريخية أخرى لا تتسع لها الإضاءة!).

لكن يمكن حسب رأيي نقد هذه الفكرة لأنها استبعدت التاريخ الشعبي، وتاريخ صمود الأهالي. فصلاح الدين جاء بعد حوالي

مائة عام من الاحتلال الاستيطاني الاوروبي في بلاد الشام. وليس من المعقول ولا الطبيعي أن الناس كانوا راضخين تماما للأمر الواقع وينتظرون من يأتي لتحريرهم.

كانت هناك مقاومات شعبية صغيرة هنا وهناك، اتخذت وسائل عديدة منها الهجوم على قوافل القوات المحتلة... الخ من اعمال المقاومة، بل برزت هناك اسماء في المقاومة.

وهذه المقاومة لعبت دورا في عدم تثبيت شرعية الاحتلال، لان المقاومة الشعبية، ايا كان مستواها، لها فعل نفسي مهم على مستويين:

اولاً، تعزيز الثقة بالذات الجمعية وهو امر معنوي مهم جداً، كذلك تآثيرها على الاحتلال لانها تذكره دوماً بأنه احتلال، ولا يملك شرعية حتى وان امتلك القوة.

لكن غياب التاريخ الشعبي غيب هذه المقاومة، وتم التركيز كله على صلاح الدين. صلاح الدين قام بانجاز كبير انه حرر القدس وبعض المدن، ولكن ظلت القوات المحتلة بعد صلاح الدين أكثر من 90 عاماً على الشريط الساحلى الممتد من عكا الى مدينة صور.

وقد لعبت هذه الفكرة دورا سلبيا خاصة في مراحل سابقة من التاريخ الفلسطينى. صحيح ان الشعب الفلسطيني حمل السلاح، وقاوم بامكانياته المحدودة احتلالين معا: الإنكليز والصهاينة. لكن فكرة الإنقاذ من الخارج ظلت فكرة سائدة على مستوى الخيال الشعبي. الأمر الذي اضعف المقاومة موضوعياً حسب اعتقادي.

ولأسباب يطول شرحها، لها علاقة بالإنتماء والتاريخ والعاطفة والتوقعات من البيئة المحيطة التي يعتبرها الفلسطينيون امتدادا لهم، ولا يعني هذا طبعا تغييب أو تجاهل البعد القومي تماماً من الصراع لكن الهدف معرفة الحقيقة من الوهم!

لكن هذا النمط من الخيال الشعبي أضعف فكرة الوطنية الفلسطينية في مراحل الصراع خاصة المراحل الاولى، كما أضعف الى حد ما من فكرة الاعتماد على النفس الأمر الذي أضعف بدوره المقاومة وعزز من الثقافة الغيبية التي تتمثل في فكره بانتظار صلاح الدين!

في ذكرى حرب 1967:
لماذا هزمنا؟

منذ ذلك الوقت وحتى الآن لم يزل هذا السؤال يتردد صداه في مختلف الأندية العربية. وقد يكون من المفارقات أن الهزيمة الأم التي أسست الكيان الصهيوني في فلسطين العام 1948 لم تثر على المستوى الفكري من الاسئلة أكثر مما أثارته هزيمة حزيران لأسباب لم أستطع تفسيرها كلها حتى الآن. لكن من المؤكد أن مرارة هزيمة حزيران كانت أقسى عربيا لأنها حصلت في زمن الأنظمة القومية والثورية العربية، أي الأنظمة التي بنت شرعيتها الى حد كبير على مسألة مقارعة الصهاينة.

كانت هزيمة حزيران مدوية الى درجة انها أثارت معها ربما لأول مرة في التاريخ العربي الحديث مجموعة من الاسئلة يمكن اختصارها بالسؤال الأشد إيلاما ألا وهو: لماذا هزمنا؟!

وللاجابة على هذا السؤال ظهر حسب رأيي ثلاثة أجوبة من تيارات فكرية متنوعة سعت كل منها أن تجيب على هذا السؤال. وسأستعرض هنا باختصار شديد لأهم أفكار التيارات الثلاثة.

التياران الأولأن متشابهان لأنهما ينطلقان من ذات الأرضية الفكرية، أي الأرضية العلمانية.

الأول، عبر عنه ياسين الحافظ خاصة في كتابه (الهزيمة والأيديولوجيا المهزومة) الذي أعتبر أن غياب الديمقراطية في المنطقة العربية كان السبب المباشر في الهزيمة. ويعتبر الحافظ

الذي شارك في حرب فلسطين عام 48 من أوائل الماركسيين العرب ممن سعوا الى تعريب الفكر الماركسي والوعي بأهمية الديمقراطية.

أما المفكر جلال صادق العظم، وهو سوري ماركسي أيضا، فانه سعى للتصدي للخرافات الدينية خاصة في كتابة (نقد الفكر الديني) والذي أحدث ضجة حينها بسبب اعتراض الإسلاميين عليه. في هذا الكتاب يعتبر العظم أن الفكر الديني يغذي ثقافة الخرافات ويضعف الثقافة العقلانية. وانطلاقا من هذا اعتبر العظم أن التحرير الفعلي للمجتمعات العربية لا بد أن يبدأ من تحرير العقل العربي من ثقافة الخرافة الدينية الى الثقافة العقلانية!

أما التيار الثالث، ألا وهو التيار الديني، فقد كان متعارضا بطبيعة الحال من التيارين العلمانيين لأنه يعتبر أن الإشكالية تكمن في تغييب الدين من المجتمع وليس العكس.

وقد ركزت الأدبيات الإسلامية على أهمية أسلمة المجتمعات بالمعنى السياسي كشرط للانتصار على إسرائيل.

ومن الواضح كما تبين فيما بعد أن أحد نتائج هزيمة حزيران كانت تقوية التيار الديني. وعلى سبيل المثال يقول الكاتب الإسلامي المصري فهمي هويدي إن بناء المساجد في مصر تضاعف بعد الهزيمة.

وهو الأمر الذي شكل كما يعتقد البعض بداية لانهيار مرحلة الفكر القومي خاصة في التجربة الناصرية وبداية صعود تيار الإسلام السياسي الذي بات اليوم من أبرز الحقائق السياسية في المنطقة العربية.

على كل حال وبغض النظر عن هذه التيارات لا شك أن الاحتلال الصهيوني لما تبقى من فاسطين إضافة للجولان السوري وسيناء المصرية، قد لعب دورا في تقوية ثقافة المقاومة والتحدي الذي كان من أبرزه صعود المقاومة الفلسطينية.

الإغراق الأيديولوجي مقتل الحركة الوطنية الفلسطينية عبر التاريخ

ربما يكون الاغراق الأيديولوجي هو أحد أكبر الأخطاء القاتلة التي أبتلي بها الفلسطينيون. وهذا الإغراق الأيديولوجي كان في الكثير من الاحيان على الوطن والوطنية. لقد كانت إحدى نتائج الإغراق الأيديولوجي هو ما اسميته مرة (باستقالة العقل الوطني) وملء الفراغ بعقلية السفسطائية الأيديولوجية التي اضرت كثيرا العمل الوطني الفلسطيني. لذا من الضروري أن نفهم أولا كيفية تشكل هذه الظاهرة التي أغرقت الفكر السياسي الفلسطيني بالوهم الايديولوجي.

أظن أن تشكل هذه الظاهرة لها علاقة بتاريخ فلسطين خاصة في مرحلة ما عرف بالحملات الصليبية في القرون الوسطى. فقد كانت هذه الحرب المتقطعة التي استمرت حوالي مائتي عام صراعا أيديولوجيا حادا بين الشرق الإسلامي وأوروبا المسيحية. وكان الصراع بمقاييس العصور الوسطى نوعا من حرب عالمية بين عالمين وحضارتين، مع كل ما تم البناء عليه من روايات واساطير غذت خيال العالم الإسلامي واوروبا لفترة طويلة.

وعلى الرغم من أن الصليبيين استوطنوا معظم بلاد الشام، لكن الأراضي المقدسة فلسطين كانت، بسبب خصوصيتها، تغذي لدى الطرفين المتصارعين الحمية والحماس الدينيين، مع

كل ما يتبع ذلك من تعبئة أيديولوجية. ولما كان الخيال الشعبي في فلسطين والمنطقة لم يزل يختزن في الذاكرة الجمعية الحملات الصليبية، لم يكن من المستغرب أنه منذ أن بدأ الصراع في بدايات القرن الماضي، رأى العرب في المشروع الاستيطاني الصهيوني نوعا من استمرار أو تكرار للحروب الصليبية، خاصة أن هذا المشروع كان يلقى دعما استثنائيا من الغرب كله بلا استثناء.

والدليل على ذلك أن الاحتلالات الاجنبية من انكليزية وفرنسية في بلاد الشام، لم تربط بالحروب الصليبية لانها كانت احتلالات عسكرية بحتة، وليست استيطانية كما في فلسطين.

كما لا يمكن فصل ذلك أيضا بتاريخ المنطقة التي تعرضت للتقسيم الى كيانات عدة، واثر هذا على الخيال الشعبي الذي ظل يرفض التقسيم. لكن الخيال الشعبي شيء وواقع السياسة شيء اخر، فالثقافة الشعبية كانت ولم تزل الى حد كبير تنظر للجميع على أنهم عرب، وهذا أمر صحيح، لكن في واقع السياسة (الريال بوليتيك) بدأت تتكون اقطار متعددة وحدود ووطنيات مرتبطه بكل كيان.

وحتى اوائل الكتاب الفلسطينيين ممن حذروا من الصهيونية في ذلك الوقت مثل خليل عازوري وسواه، رأوا الأمر على انه تهديد للأمة العربية كلها، وهذا أمر صحيح من الناحية الاستراتيجية، لكنه على أرض الواقع لعب دورا في تهميش دور القيادات الفلسطينية، لانه ساهم في تصوير الخطر وكأنه على الجميع وليس على مجموعة واحدة. الأمر الذي منع حسب رأيي

من بروز نوع من (حزب وفد) فلسطيني يتحمل المسوؤلية في ظل هذا الوضع المعقد.

وهذا التاريخ الذي اسعى لاختصاره على قدر هذه الإضاءة، يفسر حسب رأيي، هذا التضخم الهائل في الشعارات والسيولة الأيديولوجية، الذي حصل على حساب الوطنية الفلسطينية. ففي الوقت الذي كان فيه العراقيون والسوريون واللبنانيون قد اعترفوا بواقع تقسيم المنطقة، رغم استمرار الشعارات القومية، وباتوا يعملون على بناء كياناتهم الوطنية، ظل العقل السياسي الفلسطيني ينظر الى الصراع مستندا الى الكم الهائل من الشعارات المستقاه من تاريخ الصراعات القديم.

وبعبارة أخرى لم يتمكن العقل السياسي الفلسطيني من ادراك طبيعة وحجم التحولات التي كانت قد جرت، والتي لعبت دورا في تقديري في ضمور الهوية الوطنية الفلسطينية في تلك المرحلة. والدليل على ذلك أن بيانات الثورة الفلسطينية التي كانت تصدر في فلسطين في ثورة 1936، كانت تختم بياناتها باسم (سوريا الجنوبية) وليس فلسطين. الأمر الذي ساهم باضعاف الوعي الوطني واحلال الوهم الأيديولوجي مكانه. بينما في المقابل، كان المشروع الصهيوني واضحا لناحية التعريف باهدافه، ونجح في تعبئة اليهود المهاجرين حول هوية وطنية مزيفة، تتضمن جغرافية فلسطين. وحتى بعد كارثة العام 48 وعلى الرغم من وعي بعض الفلسطينين بأهمية دورهم كما حصل عندما تم تشكيل حكومة عموم فلسطين، فان ذلك كان متاخرا الى حد كبير، لان القيادات العربية صارت معتادة على التصرف بموضوع فلسطين بدون العودة الى قيادات الشعب

الفلسطيني. وهو ما حصل عندما ضم الملك الأردني عبدالله الضفة الغربية العام 1951 مجهضا بذلك امكانية قيام دولة فلسطينية.

من الممكن فهم أن للأدلجة مبرراتها التاريخية والسياسية، وأهمها الإحساس الفلسطيني بالضعف مقابل الصهاينة المدعومين من الغرب. الأمر الذي عزز من (السلاح الأيديولوجي) الذي تنقل تارة باتجاه القومية بألوانها، وتارة باسم الإسلام، ليصبح البديل المعنوي والمادي لدى الفلسطينيين لمواجهة قوة المحتل المدعوم من القوى الكبرى. كما من الممكن فهم أن العمل الفلسطيني في ظل هيمنة الشعارات القومية في بعض المراحل كان لا يستطيع التعبير عن ذاته. صحيح أن الشعب الفلسطيني جزء من المكون العربي الأوسع، ومن الطبيعي أن يتوقع من الاشقاء العرب الدعم والمساندة. لكن ضرر هذه الأدلجة، أنها كانت تصل ولم تزل الى حد ما، الى درجة المبالغة الغير ضرورية، بل والمضرة في اغلب الاحيان. فعدا عن أن جزءا هاما من الادلجة كان بيتا من رمل كما اثبتت الوقائع، افقدت الادلجة المبالغ بها قدرة الفلسطينيين على تقدير امكانياتهم، وجمدت بعضا من طاقاتهم في مواجهة الاحتلال.

إشكالية الهوية
لدى الفلسطينيين وآليات الرد

بداية دعنا نحدد ما نعني بالهوية محاولين التركيز قدر الامكان على ما له علاقة مباشرة بالموضوع. فموضوع الهوية متشعب ومعقد. فهناك أنماط من الهوية الجمعية تتعلق بالدين أو الطبقة أو المهنة الى ما هناك. لذا سيكون التركيز على موضوع الهوية ذات الطابع الوطني العام.

سؤال الهوية الأساسي يتمحور عادة حول الجواب على سؤال من انا؟ وهو سؤال محوري لأن على ضوئه يحدد المرء الكثير: تعريف ذاته، تعريف اصدقائه الى تعريف اعدائه الخ.. لكن من المهم أيضا أن نذكر أنه حتى لو كانت هناك نواة ثابتة للهوية، فإن الهوية مثل اللغة مسألة تتطور مع الزمن.

فى كتابه بناء الواقع الإجتماعي (The social construction of reality) يتناول بيتر برغر بعض من معطيات الظروف المكونة للهوية.

يقول مثلا إن المرء يولد في بيئة أو مجتمع له لغة وله ثقافة الخ.. والمرء عادة يرث هذه المعطيات بحكم التربية والمجتمع. وتظل مهمة كل جيل أن يضيف الى الهوية الجمعية كون الأمر ليس ستاتيكيا ولا متوقفا على جيل واحد. فالهوية تبنى عبر أجيال عديدة وكل جيل يساهم بدوره في عمليه البناء.

ومسألة الهوية الوطنية ترتبط أساسا بالأرض التي تعيش عليها المجموعة البشرية التي تطور عليها ثقافتها ومنظومة قيمها. وفقدان الأرض عادة يؤدي كما في الحاله الفلسطينية الى إشكالية حقيقية تفقد معها المجموعة البشرية نوع من توازنها.

ونحن نعرف من حالات مشابهة كما حصل مع السكان الأصليين في القارة الأمريكية كيف تم تدمير ثقافات هذه المجتمعات بعد سرقة أراضيها الأمر الذي أدى الى تدمير طرق العيش فيها.

ولذا أصبح التحدي الأكبر للشعب الفلسطيني كيف يتعاطى مع الخلل الخطير لأجل استعادة التوازن النفسي الجمعي.

بدأت المشكلة عام 48 لدى تدمير الكيان الفلسطيني. وفي خلال عام واحد بات الشعب الفلسطيني منقسما الى خمس مجموعات أساسية:

المجموعة الأولى، التي بقيت في أرض الوطن في مناطق 48، وباتوا يسمون "عرب اسرائيل".

المجموعة الثانية، التي تعيش في المنطقة الشرقية من فلسطين التي أسميت الضفة الغربية بعد ضمها للأردن وبات المواطنون فيها أردنيون رسميا على الأقل.

المجموعة الثالثة، في غزة كانت تحت الادارة المصرية.

المجموعة الرابعة، في سوريا حيث لم يعد يكفي تعريفهم بالفلسطينيين، بل بات يطلق عليهم اسم البلد التي يعيشون فيها مثل تعبير: فلسطينو سوريا.

المجموعة الخامسة، في لبنان الذي بات يضاف اليهم اسم البلد التي يعيشون فيها، أي فلسطينيو لبنان.

نحن اذن ازاء جرح وطني تم خلاله تفتيت وتبديد هوية شعب ومجتمع قائم وتحويله عمليا الى مجتمعات صغيرة ملحقة بالمجتمعات الأكبر.

ولكي نفهم كيف تعامل الفلسطينيين مع هذا التحدي علينا أن نفهم كيف نظر الشعب الفلسطيني لهذه التحولات العميقة المدمرة. من وجهة نظري، فإن العقل الجماعي الفلسطيني تعامل مع الكارثة على أساس أن التاريخ توقف أو تجمد في العام 1948، وهذا الأمر نلمسه بوضوح في مجموعة الحكايات والمرويات والأغاني التي تركز على حياة الهناء والاستقرار التي كان يعيشها الفلسطيني في وطنه.

إذن أصبح الشعب الفلسطيني ازاء تاريخين متناقضين متضادين ومتصارعين. مرحلة ما قبل 48 وهو التاريخ الطبيعي المرتبط بالاستقرار والوطن والأمان.. وما بعد 48 المرتبط بالضياع والدمار. بعبارة أخرى بات الفلسطيني ينظر الى ما قبل عام 48 على أنه الطبيعي والتاريخ الصحيح، وما بعد 48 على أنه التاريخ غير الطبيعي والمرتبط بآلامه ومعاناته. وعلى سبيل المثال نجد أن الغالبية الساحقة من اللوحات والصور التي كانت تتداول كانت عن مرحلة ما قبل 48، وهذا الأمر له بالطبع دلالات مهمة لناحية الدفاع عن الذاكرة الجمعية وعن الهوية. كان الأمر يمثل نوعا من استعادة نفسية لماضي لم يعد موجودا ولاجل القول إن الواقع الحالي هو المؤقت والماضي هو الثابث.

وبسبب الحجم الكبير للكارثة فقد كان على الفلسطينيين التعامل معها وايجاد آليات رد لأجل تحقيق نوع من التوازن

النفسي الهوياتي الذي من الصعب جدا لمجتمع أن يعيش بدونه. وهذا الأمر ليس لأجل التطبيع مع الواقع المؤلم بل كما نعرف من علم انثروبولوجيا المجتمعات، أن تحقيق توازن كهذا يعد أمرا حيويا بل ضروريا جدا لكي تصبح الآلام قابلة للتحمل والأمل بالعودة أي باستعادة الحياة الطبيعية قائما. ونحن نعرف من تاريخ المجموعات الاثنية أو الدينية التي تعرضت لدمار مشابه أو عانت معاناة استثنائية عبر التاريخ أنها تميل دوما الى تقديم تفسيرات مختلفة منطقية كانت أو قدرية لجعل المأساة أمرا محتملا أو أمرا يمكن تفسيره على الأقل.

من وجهة نظري حل الفلسطينيون إشكالية التوازن النفسي الهوياتي عبر عدة محاور لاستيعاب الصدمة والتعايش معها.

المحور الاول: التركيز على الحنين للأرض (اغاني ابو عرب كمثال) وهذا التركيز شمل وصف مدن وقرى فلسطين والحياة الهانئة فيها. وعلى رغم من الطبيعة المبالغة لهذا النوع من أغاني الحنين الذي عادة ما يصور كل شيء في فلسطين قبل النكبة بطريقة رومانسية رغم أن الواقع لم يكن بالضرورة كذلك، لأن الشعب الفلسطيني لم يكن حرا وكان يعيش تحت الاحتلال البريطاني وإن لم يكن من النوع الاستئصالي.

لكن قيمة هذه الاغاني هي بوظيفتها التعويضية حيث تعيد صياغة الوطن أو استعادته عبر الاغاني والقصص عن الحياة في فلسطين. وقيمتها أنها تسهل الحلم بالوطن وتجعله ممكنا. وبمعنى آخر فان الاغاني الشعبية تستعيد الوطن على المستوى الرمزي. فالاغنية تتحدث عن مدن وقرى وبيارات يعرفها

الفلسطيني وهو بذلك يقول أنها تعود اليه وليس للغرباء الذين أخذوها منه عنوة.

المحور الثاني، هو محور لوم الذات. ولعل قصة غسان كنفاني "عائد الى حيفا" هي الاكثر تعبيرا عن تلك المشاعر. فالعائلة الفلسطينية تترك ابنها في منزلهم في حيفا وتهرب من بيتها الذي تستولي عليه عائلة يهودية. تجد العائلة اليهودية الطفل الذي يربى في كنفهم ويصبح ضابطا اسرائيليا. ولعل هذه القصة الاكثر ايلاما لانها تطرح أسئلة لم يكن من السهل الاجابة عليها أقلها في ذلك الوقت عندما لم تكن ثقافة الفكر النقدي قد تطورت خاصة لدى مؤرخي تلك المرحلة حيث كانت الرواية التاريخية الفلسطينية ومجموع الثقافة الفلسطينية، وبعضها ما زال حتى الآن، تميل لتحميل الأنظمة العربية وحدها مسوؤلية ما حصل. ولكن هذا لا يعني خلو المرحلة من التساؤل عن دور العامل الفلسطيني في الكارثة، ولعل عبارة (لماذا لم تقرع الخزان) هي الأكثر تعبيرا عن السؤال المتعلق بالفعل الإرادي والمسوؤلية.

المحور الثالث هو محور المقاومة. وهي التي تمثل نهاية لمرحلة الصدمة واستيعاب الذي جرى ومقاومته. وهذه المرحلة تم التعبير عنها في الأشعار والأدب الذي يمجد فكرة التصدي للاحتلال. وقد ارتبطت هذه المرحلة بصياغة الهوية الوطنية الفلسطينية في الأدب والفن الى كل ما له علاقة في إحياء الهوية الفلسطينية والاعتزاز بها. وتلازم ذلك مع بروز المقاومة الفلسطينية وعملية الاحياء الوطني في الأدب والفن حيث تم فيها صياغة الهوية الوطنية الفلسطينية Nation building.

ولعل اشعار محمود درويش ومعين بسيسو وسواهم الاكثر تعبيرا عن تلك المرحلة.

الخلاصة من وجهة نظري تتجاوز آليات الرد الفلسطيني المراحل التي ذكرتها. فهناك مرحلتان أظن انه من الضروري دراستهما من حيث تأثيرها على آليات الرد الفلسطيني وتتعلق بالبعدين العربي والاسلامي. لكني اكتفيت بالتركيز على المحاور الثلاثة في آليات الرد الفلسطيني لأن دراسة المحاور الأخرى تحتاج الى أكثر من إضاءة أو حتى بحث واحد!

في مواجهة "البروبوغاندا" الصهيونية

القارىء لمقال الباحثة الاسرائيلية جوديث ديفس "كيف وصل الفلسطينيون الى فلسطين"، لن يجد صعوبة في معرفة انها لا تملك حتى الحد الأدنى من معرفة قواعد البحث العلمي. فالبحث العلمي في مجال التاريخ أو سواه هو جهد للكشف المعرفي من خلال طرح إشكاليات ما، وفق إستخدام آليات ومناهج محددة، هذا عدا عن المراجع والدقة العلمية.. الخ. والمقال من أوله لآخره ليس سوى "بروبوغاندا"، وتلاعب هزيل بأحداث التاريخ، وهو الأسلوب القديم المتجدد للصهاينة.

وكان من الممكن تجاهل كل ما قالته من "بروبوغندا" لولا انها استخدمت في مقالها عبارة من كتاباتي، أو بالأحرى في حوار أجرته معي الصحافية المالطية الصديقة رامونا وادي المدافعه الصلبة عن الشعب الفلسطيني. كل ذلك لكي تستكمل ديفس بناء التزوير الذي بدأته. حيث تقتطع عبارة أقول فيها في وصف مرحلة انطلاقة المقاومة الفلسطينية المعاصرة "إن منظمة التحرير الفلسطينية، لما دخلت المخيمات قامت باعادة بناء الهوية الفلسطينية من خلال النشاط السياسي والإجتماعي والثقافي".

مثلما تسعى ان توظف عبارات قالها قادة فلسطينيون من "أن فلسطين جزء من بلاد الشام والوطن العربي"، وكأن ذلك يعني أن الشعب الفلسطيني لا يملك هوية خاصة به. كل ذلك لكي تصل الى ذات الغاية التي تكررها طوال الوقت، وهي أنه

لم تكن هناك هوية فلسطينية قبل هذا التاريخ! ولذا فان أقل وصف لما كتبته هو أن كل روايتها للتاريخ ليس سوى "بروبوغاندا" مكررة الى درجة بائسة سمعناها وقرأناها آلاف المرات. ولو لم ينشر هذا الكلام في موقع اسرائيلي لرددت عليها في نفس المكان، بما يكفي للإثبات، بالحقائق الساطعة، أن كل ما قالته هو تزوير لا يقبله حتى طالب مبتدئ في التاريخ. بل يمكن الاقتصار في الرد حتى بالاستناد الى كتابات وأبحاث مؤرخين اسرائيليين موضوعيين مثل إيلان بابه وشلومو ساند.

تدخل ديفس في عرض تاريخي، أقل ما يمكن وصفه أنه يفتقد للتماسك التاريخي وذلك عبر سرد روايات رحّالة في القرون الماضية، لم يشيروا فيها الى وجود الشعب الفلسطيني! وتدعم روايتها البائسة باسماء عائلات فلسطينية مثل المصري واليماني والشامي، لتؤكد ذات النتيجة التي تسعى لها وهي أنه لا يوجد شعب فلسطيني. وأن العرب الموجودين في فلسطين جاؤوا من مصر وسوريا ولبنان.. الخ. ولو كان لديها الحد الأدنى من معرفة طبيعة التداخل التاريخي والثقافي والإجتماعي بين فلسطين والجوار الشقيق، لما قالت ذلك. لكنها تسقط رغبتها على واقع لا يتفق أبدا مع منطق الغزاة.

والذي قرأ مقالي النقدي حول أصول العائلات الفلسطينية، قبل نحو عام، كان الهدف منه بالدرجة الاولى تنبيه الفلسطينيين الى أهمية هذا الأمر. حيث يعيد ممن كتبوا عن تاريخ عائلاتهم الى أصول من الجزيرة العربية وسواها، وهذا بعض الحقيقة، لكن ليس كل الحقيقة. فلسطين كانت موجودة قبل مجيء العرب، والمدن الفلسطينية الآهلة بالسكان الفلسطينيين كانت موجودة قبل

الإنتشار العربي في بلاد الشام. وغالبا ما يستخدم الصهاينة هذا الكلام لأجل دعم سياسة النفي والاضطهاد والالغاء. والهدف هو انتزاع الشعب الفلسطيني من انتمائه المكاني في فلسطين ومن هويته الخاصة به، لأجل تبرير سياسة الاحتلال والبطش وحرمانه من حقه في تقريرالمصير.

ومن جملة الاكاذيب التي تذكرها، وهي كثيرة ولا يوجد متسع لذكرها، انكارها لمسوؤلية الصهاينة في التهجير القسري للشعب الفلسطيني في عام 48. بل تضيف كذبا اسوأ يعطي الإنطباع، وكأن الصهاينة كانوا من الصليب الأحمر وليسوا غزاة. وذلك بقولها إن الصهاينة أرسلوا سيارات بمكبرات صوت تدعو الفلسطيين الى عدم الرحيل عن بيوتهم، والبقاء في أرضهم. وهذا كله لا يستقيم مع أبسط الحقائق المؤكدة والموثقة بدرجة عاليا جدا، اذ لا يوجد صراع ربما في كل العالم تم توثيقة كما في حالة القضية الفلسطينية. وهو ما أكده مؤرخون اسرائيليون من المؤرخين الجدد، مثل بني موريس في كتابه "مولد قضية اللاجئين الفلسطينيين". (وبني مورس الذي بدأ بداية يسارية كما ظن الكثيرون انقلب ليصبح في منتهى الضحالة).. بالاضافة الى ما قاله قادة الصهاينة انفسهم عن الأوامر الصريحة بالتهجير، وهي مسجلة وموثقة ومعروفة جيدا.

مقالة ديفس تعكس بكل أمانة العقل الصهيوني الفاشي. وعقلية اليمين اليهودي الديني المتحجر الذي يحكم اسرائيل الآن. وكل الممارسة الوحشية التي تحصل في فلسطين وتزداد شراسة مع الوقت، هي انعكاس لهذا النمط من التفكير الفاشي.

إنها عقلية الغائية ودموية لم تتغير منذ الغزو الأول عام 48. إنها عقلية، كل استراتيجيتها من الألف حتى الياء قائمة على شطب وجود الشعب الفلسطيني بكل السبل المادية والمعنوية والثقافية. ودعوة ليبرمان لترحيل السكان الأصليين لفلسطين من مناطق 48، هي في إطار هذا الفكر المعتوه، الخارج عن روح العصر، وعن قوانين الدنيا كلها.

لقد انتهت مرحلة الصهيونية العلمانية التي كانت تفضل استعمال القفازات في اضطهاد الشعب الفلسطيني لكي تحافظ على كذبة (الدولة الديمقراطية الوحيدة في المنطقة)، وتمر الآن في مرحلة الفاشية اليهودية الموغلة بالوحشية التي لا يهمها ان يرى العالم يديها مغمسة بدم أطفال فلسطين.

في نقد الفكر الديني

في كتاباتي السابقى دعوت وما زلت الى أن لا يتم الاستخفاف بحالة الجنون الديني. إن مجتمعاتنا كلها من الخليج الى المحيط في خطر حقيقي بسبب انتشار هذا الجنون الديني.

وإن استمر الوضع على ما هو عليه ستكون هناك ضرورة لحماية كل مواطن يقف ضد ثقافة التطرف، بل لحماية كل عود أو غيتار أو مكان أثرى. لا يوجد أي مجال لتبرير هذه الجنون بأي شيء. العالم كله وقع تحت حكم انواع شتى من الديكتاتوريات وأنظمة الحزب الواحد، لكننا لم نر ما نراه من تدمير شامل لمجتمعاتنا ولحضارتنا. وأيا كانت الأسباب التي سمحت لهذا الجنون أن ينتشر وهي أسباب لا بد من فهمها ولكن لا مناص الآن من مواجهة مع هذا الفكر.

واذا كان الجميع يتفق أن المواجة الفكرية ضرورية على المدى البعيد وذلك من خلال ضرب المرتكزات الفكرية التقليدية التي تسمح لهذا الفكر أن ينمو ويترعرع وينتشر. إلا أن المواجهة العسكرية باتت ضرورية لهزيمة هؤلاء، الذين وفروا المكان الآمن لكل المتطرفين على شاكلتهم من ن ياتوا الى بلادنا لأجل ممارسة القتل والذبح.

وعلى الجميع في اعتقادى الإنخراط في هذه المواجهة لأن مستقبل بلادنا ومستقبل مجتمعاتنا وحضارتنا تعتمد على هذه المواجهة. وعلى الرغم من معرفتنا أن التاريخ لم يقدم لنا مثلا

واحد على استمرار ظواهر التطرف. لكن لا بد من مواجهته بكل قوه لكي لا تتعمق أخطاره وتمتد الى أجيال في المستقبل.

لكن الهزيمة النهائية لهذا الفكر لا تحقق بدون عمل على مستوى الفكري الديني لتنظيف الدين مما علق به من شوائب تسمح لفكر التطرف أن يستند اليه لدعم مشروعيته.

ولا يكتمل بدون تقديم تعليم يشجعه على ثقافة قبول الآخر المختلف. لقد انتهى زمن التبشير الديني ونحن الآن في زمن قبول الآخر المختلف.

كما لا يكتمل بدون عمل مواز من خلال ضرب كل المرتكزات العشائرية والطائفية التي تغذي مباشرة أو غير مباشرة ثقافة العنف والكراهية.

إن ضرب هذا الفكر عمل شاق ومضن ويتطلب صبرا وجهودا مجتمعيه كبيرة. لكن لا مناص من مواجهته بكل قوة. ولا مناص من الحاق هزيمة نهائية بفكر الكراهية.

إن فكر التطرف والاقصاء فكر ذرائعي وتلفيقي بامتياز. إنه يستغل البؤس العام من الأنظمة الفاشلة لكي يبرر ثقافة الإرهاب وقطع الرؤوس، ولكي يقوم بغسل عقول الجيل الجديد الناقم على الاوضاع.

وإن اردت معرفة نمط تفكير الفاعل عليك أن ترى الفعل ذاته، كما في الفلسفة اليونانية القديمة في العلاقة بين الشكل والمضمون. وضع متفجرة في ميترو لندن وقطع رأس جندي بريطاني في قلب لندن. ووضع متفجرات على سكة حديد في مدريد وقبل ذلك الإرهاب في أمريكا. اضف الى العشرات من هذه الاعمال الإرهابية في أمكنة عديدة من العالم. منطقهم في

كل مرة ذاته، بريطانيا احتلت بلاد المسلمين واسبانيا فعلت كذا وكذا وأمريكا تفعل كذا وكذا.

وذات الأمر ينطبق على البلاد العربية حيث يقولون إن النظام هنا أو هناك قمعي، وكل ذلك لتبرير القتل والعنف. ما تعرضت له شعوب أمريكا اللاتينية من عنف من قبل الأنظمة العسكرية هناك يفوق مئات المرات ما تعرضت له الشعوب العربية. ولم يحصل رد فعل دموي بدائي وقطع رؤوس ولعب كرة القدم بها. وما فعله الغرب ضد المنطقة العربية من اضطهاد هو أمر بسيط جدا مقارنة بما فعله الغرب في افريقيا والهند والصين واليابان وأمريكا اللاتينية.

ما الذي يحصل في بلادنا إنه يتم توظيف هذا التاريخ في توليفة ثقافية متطرفة لشحن الاجيال الجديدة، لأجل جعل الصراع يبدو وكأنه صراع أبدي بين المسلمين والآخرين. وصراع بين هؤلاء المتطرفين مدعي الحقيقة المطلقة، وكل الآخرين المختلفين عنهم، الذين له رؤى دينية مختلفة سواء من الدين نفسه أو الأديان الأخرى. وطبعا اسرائيل هي المستفيد الأكبر من هذا وهي التي تسوق نفسها الآن على انها (فيل في غابة!) والتي تعمل على تصوير كفاح الشعب الفلسطيني من أجل الحرية كأنه جزء من هذا التطرف، والتي بدأت تسعى لتجنيد مسيحيي فلسطين في الجيش الاسرائيلي مستفيدة من هذه الأجواء.

هذا الفكر الاقصائي لكل ما هو مختلف عنه، هو نوع من إمبريالية إرهابية عنصرية تملك وهم الاعتقاد أنها وحدها من يملك الحقيقة، وكل الآخرين كفار. بهذا المنطق يصبح الجميع

كفارا، مسيحيين كانوا أم زيديين أم شيعة أم علويين أم دروز أم سنة يختلفون عنهم في التفكير. المحزن أنهم نجحوا في تفريغ الشباب من المشاعر الإنسانية بسبب شحن الكراهية، بحيث فاقت مشاعر الكراهية المبرمجة المشاعر الإنسانية الفطرية الموجودة عند البشر. الأمر الذي يفسر أن يصلوا الى مستوى أن يأتي انتحاري ليفجر نفسه في مدرسة اطفال في باكستان. والسبب فقط أن لأهالي هؤلاء الأطفال رؤيا دينية مختلفة. لذا حان الوقت لكي يقف الجميع من قوى علمانية وديموقراطية ودينية معتدلة لمواجهة هذا الفكر الاقصائي المدمر.

فمواجهة هذا الفكر باتت ضرورة لا غنى عنها، لان تمدده وتوسعه يهدد اوطاننا جميعا، ويقودنا الى حروب وصراعات لا تنتهي.

إشكالية الفتاوى السياسية

مع انفجار المنطقة العربية برزت ظاهرة الفتاوى السياسية بقوة لم تعهدها المجتمعات العربية. وإشكالية هذه الفتاوى أنها باتت مفتوحة الى درجة بتنا نرى فيها كل ما لم يكن يخطر على بال، الأمر الذي يمكن وصفه بفوضى الفتاوى التي باتت جزءا يوميا من الحياة الإجتماعية والسياسية في بلادنا.

على المستوى التاريخي لعبت الفتاوى دورا في تأكيد شرعية الحاكم أو في نقض شرعيته. وهذا ما جعل الحكام يعون أهميه كسب المؤسسة الدينية لمعرفتهم بخطورة تأثيرها على عامة الناس.

وهذا الأمر لم يكن مقتصرا على الحكام بل أيضا على المعارضة الأمر الذي تم فيه توظيف الفتاوى في الصراعات السياسية التي كانت تجري الأمر الذي جعل من الكثير من هذه الفتاوى عرضة للاستغلال لدى الاطراف الإسلامية المتصارعة التي كان كل طرف فيها يسعى للدفاع عن مصالحه وشرعنتها عبر الافتاء. ولعل هذا السبب الذي أدى لظهور ما يمكن تسميته بفتاوى السطان أو المؤيدة لنظام الحكم وايضا فتاوى المعارضة التي تقف ضد النظام الحاكم. وتاريخ الدول العربية الإسلامية القديمة مليء بالفتاوى التي صدرت لدعم الحكومات الأموية في صراعها مع الاطراف المسلمة التي كانت تنتفص أو تشكل في شرعية حكمها. وذات الأمر نجده في فتاوى القوى والفرق المناوئة التي لم تكن تعترف بشرعية هؤلاء الحكام.

إن نقدنا لفوضى الفتوى في الزمن الحالي لا يعني بالطبع تجاهل حقيقة أنها لعبت أحيانا دورا في مقاومة الغزاة وتشجيع الأهالي على مقاومة العدوان كما حصل في فتوى الشيرازي المشهورة في ايران والمعروفة بفتوى التنباك وفتوى علماء الزيتونة بتحريم الحصول على الجنسية الفرنسية اثناء مقاومة الاحتلال الفرنسي.

وأيضا ليس من باب عدم ادراك أنها من منظور سايكولوجي سوسيولوجي ربما لعبت دورا لاجل تحقيق التوازن النفسي المجتمعي المطلوب خاصة في ازمنة ضعف الحاكم أو الدولة العربية وعدم قدرتها لسبب أو لآخر على تطبيق العدل الذي يعتبر من مقاصد الدولة الأساسية في الإسلام.. وبهذا المعنى ظلت الفتاوى شعارات ورؤى عامة تعبر عن ضمير ورأي الأمة وآمالها وتطلعاتها وأهدافها حتى في الوقت الذي لم يكن من الممكن فيه تحقيق الاهداف الوطنية المتوخاة ولعل فتوى تحريم التعامل مع اسرائيل مثال على هذا.

لكن هذه الفتاوى لم تقتصر على دعم قضايا تحظى باجماع الأمة لأنها أيضا استخدمت بقوة من قبل الحكام العرب لأجل تقديم التسويغات الدينية والشرعية لسياسات لا تحظى بقبول شعبي. كما في حالة استخدامها من قبل انور السادات لأجل الصلح مع اسرائيل واخراج مصر من الصراع العربي الاسرائيلي أو في حالة استصدار حسني مبارك لفتوى لاجل بناء السور لحصار غزة أو في تثبيت شرعية الحكم كما رأينا في مصر.

واذا كان من الممكن فهم أهمية الفتاوى أيام الدولة العربية القديمة التي كانت في الجوهر دولة دينية أو تستند للدين في شرعيتها الأمر الذي يكون فيه مفهوما أو طبيعيا أن القوى الناقدة لها كانت تنطلق من ذات الأرضية الدينية الأمر الذي قد يبرر التسلح بالفتاوى الا انها في الدولة المعاصرة الحديثة لم تعد ضرورية بسبب وجود احزاب معارضة أو آليات نقد حديثة للدولة وأدائها.

إن النقد السياسي المعاصر بات يستند الى مرجعيات لا علاقة لها بمرجعيات الفتاوى. واكثر من ذلك لم يعد هناك حاجة للفتاوى في الزمن الحاضر لاسباب كثيرة لعل أهمها أن الدول المعاصرة لم تعد تستند في تكوينها للشرعية الدينية. ولذا يمكن التصدي للقصور والاخطاء عبر النقد السياسي الدنيوي وليس بالاستناد لما قاله ابن تيمية في أزمنة غابرة. وهذا النقد يستند عادة على معطيات معاصرة التي تمنح شرعية الحكم مثل مدى احترام الدولة للدستور ومنظومة الحقوق القانونية التي اقرها المجتمع عبر الاستفتاء والإنتخابات.

فالدولة المعاصرة ليست معاصرة أيضا بالمعنى التاريخي للكلمة. انها معاصرة لان الدولة الحديثة تضع سياساتها في التعليم والتنمية والصحة والأمن.. الخ بالاستناد على رؤى وبرامج وحقائق ومعطيات الحياة المعاصرة وليس بالاستناد على مرجعية دينية.. والسياسة في نهاية المطاف هي ادارة المجتمعات والعمل على تدبير أمورها ومعالجة مشاكلها وقضاء مصالحها. والدين يجب أن يظل الإطار الإخلاقي العام للمجتمع وليس نظرية سياسية له. وفصل الفتاوى عن ولوج معترك

السياسة هو جزء من فصل الدين عن الدولة. وتحرير مجتمعاتنا من هذه الفتاوى التي تخلق الفوضى والارتباك هو جزء من خروج بلادنا من هذه الفتن والبلابل التي دخلت الى بلادنا وباتت تهدد وحدة واستقرار بلادنا وتهدد الاهداف التي ثار الناس من اجلها وهي الحرية والعيش الكريم والكرامة الإنسانية.

في المجتمع المستند إلى الطائفية، كل فرد يصبح طائفيا بالضرورة!

هذه المقاربة السوسيو-ثقافية تعتمد أساسا على فهم آليات الاشتغال الطائفي في المجتمع وأثر ذلك على الأفراد. كل الأشخاص الذين يتربون ويعيشون في ظل أنظمة تعتمد الطائفية هم طائفيون بالضرورة سواء اعترفوا بذلك ام لا، وسواء كانت عندهم جرعات طائفية قوية أم خفيفة، وإن كانت تعتمد القبلية فهم قبليون بالضرورة، وإن كانت تعتمد الطبقة فهم طبقيون بالضرورة.

والمسألة لا تحتاج إلى كثير من العناء لأجل فهم آليات اشتغال الفكر على الأفراد الذين يتعرضون له منذ الولادة. هل من المعقول لشخص يولد على طريقة الطائفة ويتشبع بافكارها منذ الصغر سواء تاريخها وتقاليدها ونظرتها للآخر المختلف، ثم يجد وظيفته في الدولة من خلال الحصص الطائفية، ثم لا يكون طائفيا؟ من المستحيل لشخص يعيش هذا الوضع، ولا يكون كذلك، بل استغرب ألا يكون طائفيا!

والمسألة هنا ليست تصنيفا أخلاقيا بقدر ما هي اضاءة انثروبولوجية على عمل أليات الثقافة المجتمعية.

قد لا يعجب هذا الكلام الأخوة اللبنانيين والعراقيين الذين اعتمدوا صيغة المحاصصة اللبنانية الذين قد يقول قائل منهم أنا

لست طائفيا! وإن قال ذلك لن ادخل معه في نقاش، لكني متأكد أنه يقول ما يتمناه إن يحصل، وليس ما يشعر به حقيقة!

هل يمكن أن يكون رئيس بلاد ورئيس وزراء ورئيس برلمان موجودين في مناصبهم على خلفية انتمائهم الطائفي ولا يكونون طائفيين في التفكير؟

هذا طبعا لا يعني وجود الاشخاص العقلانيين والمستنيرين الذي يملكون جرعات أقل من الفكر الطائفي لاسباب عديدة منها اشتغالهم على انفسهم من خلال الثقافة أو أنهم عاشوا في بيئات أخرى أثرت عليهم بصورة مختلفة. كما لا يعني وجود الاشخاص الذين يفكرون على مستوى الوطن وليس على مستوى الطائفة.

اضطر هنا للاستعانة بتعبير من علم النفس الإجتماعي (الانترنالايزيشن) الذي لا أعرف مقابله في العربية، سوى كلمة الهضم أي الآن المرء يهضم الثقافة التي تربى فيها وتصبح جزءا منه. وقد كتب في ذلك الإنثروبولوجي بيتر يرغر عدة كتب حول التركيب الإجتماعي وتأثيره على الافراد.

وتحضرني في هذا الصدد قصة رجل سال عن دين آخر، فقيل له أنه ملحد، فاجاب أعرف أنه ملحد، لكن أريد أن أعرف إن كان ملحدا مسيحيا أم ملحدا يهوديا.

وهذا المثل يعبر عن ما حاولت ايضاحه عندما تحدثت عن عملية الهضم الثقافي. أي أن الفرد حتى وإن كان ملحدا إلا أنه يحمل بعضا من الموروثات الثقافية التي ولد ونشأ فيها.

وهذا الكلام ينطبق أيضا على البلاد على المجتمع المؤسس على القبلية. حيث انتماء المرء القبلي يحدد له مستقبله وعلاقاته وحياته.

في الهند مثلا، يقوم المجتمع على نظام الطبقات الإجتماعي المستند إلى رؤية دينية من الدين الهندوسي. ولا يمكن الإنتقال من طبقة إلى أخرى كما لا يمكن الزواج الا من ذات الطبقة. الاولى هي طبقة رجال الدين البراهمة القادمين من رأس الالهة والثانية طبقة الكشتريا وهي الطبقة العسكرية القادمة من ذراع الالهة والثالثة هي الفيسشاس القادمة من فخذ الالهة، وهي طبقة التجار والصناع، والرابعة هي طبقة الشودرا القادمة من قدم الالهة التي هي طبقة العبيد.

كيف من المكن لانسان ولد في طبقة معينة ويعيش حياته كلها ويتعامل معه المجتمع بما فيه مؤسسات الدولة على اساس ذلك أن لا يكون طبقيا (بالمعنى الهندي طبعا)؟

هذا مستحيل حتى لو كان الشخص سكرتير الحزب الشيوعي الهندي لأنه في نهاية الامر، هو جزء من هذا النظام الإجتماعي الذي تربى فيه والذي يتعامل على اساسه يوميا، حتى وان لم يكن مقتنعا به! إذ هناك حقائق موضوعية هي أكبر من رغبة وأماني الاشخاص!

وهذا كله لا يعني عدم وجود اشخاص يسعون لأن يفكروا بطريقة عابرة للطائفة أو القبلية، وهنا يأتي دور الوعي ودور المتنورين. فالطائفية كثقافة وفكر هي صناعة سياسية، ويمكن أن تختفي أيضا بصناعة سياسية مضادة. ولذا هناك فرق بين أن

يكون المرء طائفيا في التفكير، وأن ينتمي المرء لطائفة وهو أمر لم يختره أحد بالطبع.

فالطائفية مثلها القبيلة تفترض ولاء الفرد الأعمى للطائفة، كما يتوقع الفرد أن تقف الطائفة إلى جانبه إن احتاج لها. إنها انتماءات مرحلة ما قبل الحداثة بلا شك، ويمكن لها أن تتغير. ففي الهند مثلا قام غاندي ببعض الاجراءات لاضعاف الطبقية، لكن لم ينجح كثيرا لانها مترسخة في المعتقدات الدينية وأيضا لأنه لم يعش طويلا ليخوض التجربة كلها. وتأثير التصنيف الطبقي الهندوسي امتد حتى على الهنود المسلمين. وعلى سبيل المثال، الباكستانيون المسلمون وجلهم ممن تحول إلى الإسلام من الهندوسية، ومعظمهم كان من طبقة الشودرا، قاموا بأسلمة النظام الطبقي وصار مَنْ هم من السلالة الهاشمية هم من الطبقة الاولى.

المؤلف في سطور

ولد في لبنان من اسرة فلسطينية مهجرة من الجليل
درس الأدبين الإنكليزي والامريكي في الجامعة اللبنانية.
عمل في التدريس الثانوي وفي الصحافة.
درس في جامعة اوسلو وكلية بشلت في اوسلو تاريخ الاديان ودراسات في العالم الثالث والإنثروبولوجيا والتاريخ، وحصل على الماجستير والدكتوراة في تاريخ الاديان.
عمل في التدريس الأكاديمي العالي، كما عمل مستشارا في الشوؤن الإجتماعية.
له كتاب حول (إشكاليات التعليم الفلسطيني خارج الوطن)
وكتاب في المسرح بعنوان (في الطريق الى بغداد)
كما ألف عشرات الدراسات منها:
ـ وظيفة الاغنية في المجتمع البدوي
ـ دور نظام الطبقات في الهند في الحياة الإجتماعية
ـ تفكيك الفكر الصهيوني
وللمؤلف مئات المقالات حول الفكر والسياسة والثقافة باللغات العربية والإنكليزية والنرويجية، وكتاباته مترجمة الى أكثر من 20 لغة.

بجرأة المفكر والمؤرخ، وفضول الباحث الإجتماعي،
والمثقف الثوري الملتزم، يختار الدكتور سليم نزال
السباحة في مياه العمليات التاريخية العميقة.
وهو إذ يتابع الزلازل السياسية والإجتماعية المتسارعة
التي تهز المجتمعات العربية في المنطقة من الاعماق،
فإنه لا يراها بمعزل عن ارتباطها بأصولها الفكرية والثقافية
والحضارية حيث تشكل هذه الزلازل الارتدادية جزءا من عملية
تاريخية يصطدم في إطارها طموح الشعوب العربية
لإنجاز التغيير الحقيقي في أوضاعها،
وتصطدم تطلعاتها الى التحرر وإسقاط الإستبداد السياسي،
واستعادة كرامتها الإنسانية والوطنية
بقوى الثورة المضادة والردة الإجتماعية.

عصام مخول
رئيس معهد إميل توما للدراسات الفلسطينية والاسرائيلية – حيفا
عضو الكنيست السابق، الامين العام السابق للحزب الشيوعي الاسرائيلي

آلاف الكتب، لكل وقت، ومن أي مكان
e-kutub.com